حبل من مسد

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
بيلومانيا - Books
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

حبل من مسد

رواية

حنان الهواري

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

書誌事項

- **الكتاب: حبل من مسد**
- **المؤلف: حنان الهواري**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- **رقم الإيداع : 2456 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-74-3**
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- تدقيق: ببلومانيا
- الغلاف: أحمد جودة
- المدير العام: جمال سليمان

- العنوان: 27 شارع جمال الدين دويدار من عباس العقاد – مدينة نصر - القاهرة

  38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 0020120886882 – 0020106553454 – 0020121082641 5
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
ببلومانيا - Books
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

إهداء

إلى الألم...

شكراً لأنّه لولاك ما أدركنا قيمة البهجة.

إلى كلّ العادات التي أرّقتنا... أنتم عاهات وليس عادات .

إلى اغتراب داخلي افترسنا حتى تآكلنا، ولم يبق منا إلا الفُتات... سحقاً لك !

إلى الصعيد ذلك الكون الفسيح بعاداته الصارمة... دمت معين الإبداع .

إلى كلّ من ماتت روحه وما زال بجسدٍ حيّ... عذراً لك .

إلى النّطفة التي منحتني البهجة أحفادي... دمتم شمسي التي لا تغيب .

إلى حبلٍ من مسد باكورة أعمالي ومولودتي الأولى... لك فضلٌ عليّ .

إليكم جميعاً... لكم وعنكم أكتب

...حبلٌ من مسد.

أربعةٌ من الفئة ذات البشرة السوداء استقلّوا حافلة بمدينة مونتغمري جنوب الولايات المتحدة، وخلال سفرهم صعد بضعٌ من البيض إلى الحافلة، وطبقًا للقانون الأمريكي؛ فعلى التوّ طُلب من هؤلاء السود ترك أماكن جلوسهم؛ ليحتلّ مقاعدهم البيض، فأطاع على الفور ثلاثةٌ منهم، بينما رابعتهم - والتي تُدعى السيدة فركس - أبت إلا أن تتمسّك بحقها، فكان الاعتقال هو نتاج فعلتها !روحٌ من الاحترام الذاتي غزت نفوس السود، فعزموا على مقاطعةٍ طويلة المدى، أرغمت المحكمة العليا على الإعلان عن أن التمييز السائد مُنافي للدستور الأمريكي .التفرقة العنصرية إشكالية عانى منها الكثيرون، جعلت الموصومين بالدونية في حالة اغتراب عن وطنٍ هم قاطنيه، فكيف له أن ينتمي لأُناسٍ سلبت منهم ذواتهم!، واستنزفت طاقاتهم، وأفكارهم دونما تعديل لأوضاعهم الإجتماعية، ولا عجب حينها من أن يقع المرء تحت وطأة الضعف والاستسلام، فيشعر بغربة عن من حوله، بل وعن ذاته نفسها" .الاغتراب حالة طبيعية في مجتمع فاقد الهدف والقصدية "هذا ما قاله الفيلسوف سارتر حين أراد أن يؤصّل مفهوم الاغتراب، فحين يُصدّر المجتمع لأبنائه انعدام القصد والهدف، ويُخمد لديهم الشعور بقيمة الذات، يلجأ الفرد حينها لاغتراب اجتماعيّ يفصله عن كل ما حوله .ينطبقُ بالتبعية ذاك الأمر على المهاجر الذي ترك بلده بحثًا عن فرصة عمل لائقة، فحين يصل لموطن عمله يدرك أنه ليس عليه ترك ذويه فقط، بل وُجب عليه أن يركل كلَّ عاداته وأعرافه لكي ينخرط في مجتمعٍ بتقاليد غير التي شبّ عليها، فيسقط بدائرة الصراع، ويقع تحت براثن الاغتراب الداخلي كما الخارجي .ويظلّ هكذا متمنّيًا العودة لدفءٍ وأمانٍ قد اعتراه في كنف وطنه، حتى يتحيّن ساعة اللقاء، وتلك هي الطامة الكبرى، فحين عودته حاملًا إليهم رسائل الأشواق، يقابلونه كضيفٍ نزل بهم ساعة ورحل فيعود حاملًا أذيال الحرمان، وجفوة اللقاء .شبكة علاقات عنكبوتية يمسك بتلابيبها أفراد المجتمع، أعجزت المغترب عن التواصل معها، والانغماس داخلها، فبات مسخًا مشوّهًا معدوم الملامح، لا أرض تؤويه بأمانها، ولا من أهل يعتليه دفئهم .فأي قسوة تلك التي أذاقته مرارة الاغتراب؟ " !أنا لست مثالية، ولكن أودّ أن

أكون مثالية، وأنا أحاول أن أكون كذلك "تلك العبارة التي ذكرتها الممثلة الأمريكية شيلي لونج، توضح ميل الإنسان نحو المثالية، وسعيه الدؤوب نحو الكمال .ريثما يجد الإنسان نفسه نسخة مشوهة لا قيمة لها، ولم يلتفت إليه أحدٌ؛ ينتابه العجز والوهن، ويلهث خلف عالم خياليّ من المثل متطلعًا إلى كمال يرضي غرور نفسه، فيتمنّى وقتها لو ينتزع نواجذ روحه ويكوّرها ملقيًا إياها في سلة المهملات، ولكن لا مناص، فيعصف بكل ما حوله ضاربًا به عرض الحائط ملتجئًا لعزلة لم يحسب أن انقباعه فيها سيورثه اغترابًا داخليًا حتى عن ذاته .إنّ الاغتراب عن الذات هو أشدّ أنواع الاغتراب وقعًا على النفس، يفقد خلالها المرء التعرف على قدراته وطاقاته مصوّبًا النظر تجاه مدى تقييم واهتمام من حوله به، وكلّما نمّى ذاك الشعور في مخيلته، حجب عنه ضوء الحقيقة، وأعاقه عن رؤية ماهيته " .إذا لم تزد في الحياة شيئًا، كنت أنت زائدًا على الحياة " قيمة الهدف التي سطرها الرافعي في مقولته تنجيك من عتمة التخبط والتشرذم التي تلاحقك .فطبقًا للأنثروبولوجيا الإجتماعية تجد أنه حين تضع نصب عينيك أهدافًا واقعية ملائمة لإمكانياتك، وقدراتك وفق احتياجات مجتمعك، وتسعى جاهدًا لتحقيقها، ستخرج وقتئذٍ من عباءة الاغتراب باحثًا عن إنسانية قد افتقدتها زمنًا .وكلّما يُدغدغك حديث الاغتراب الداخلي تذكّر السيدة فركس التي قضت على ذاك الشعور الذي اعتراها، بهدفٍ لامسته بأطراف أصابعها، فعزمت على تحقيقه، وها هي قضت بالفعل على تفرقة أرّقتها هي والكثيرين أمثالها ممن يحملون بشرة سوداء" .حبلٌ من مسد" رواية اجتماعية تناقش قضية الاغتراب الداخلي والخارجي، كما أنها تتغلغل في أعماق الصعيد لتحكي بعضاً من الثآليل التي تؤرق معظم نسائهم" ...حبلٌ من مسد" تبعثُ إليك برسالة مفادها :أنّ في جوف كلّ ألمٍ أملاً يدفعنا للبقاء!

المقدمة

قصاصاتٌ من مجتمع يُعلي متطلبات الجسد على متطلبات الروح، ما زال يقوم بوأد البنات بطريقة شرعية؛ فتنتهك إرادة البنت بموافقتها ويُلوى عنق الحق بيد باطل يرتدي لباسه وينطق بلغته متناسين أنّ موافقتها اللفظية والقلبية شرطاً لصحة الزواج، يلقون جسداً بين ذراعي آخر دون إدراك أنّ هناك روحاً تتمزق وقلب يُكوى بسياط الرفض!

تحت مقصلة عادات بترت الكثير من الأرواح، وتمزقت أشلاءة؛ ليحيا أصحابها وعاء يحمل روحا قد وأدت، وقلب تعتصره الحسرة وعيون ذاهلة، ترتقب الخلاص في متاهة لا تنجو منها إلا وهي محمولة على أعناق أناس قد ساقوها إلى هذا المصير المعتم؛ فهي ترد الموت مرتين وفي كليهما ترتدي كفناً أبيضاً مرة إلى أحضان رجلٍ لم ترتضيه، أو رجل يتناسى أنها أمانة قد ملكها بميثاق غليظ عليه أن يحسن إليها، ويتقي الله فيها، وأخرى إلى قبر انتظرت حلم النجاة فيه، تعيش تناجي طائف الموت وإن طال بها العمر فهي تحيا لتئن تحت أرزاء تفوق جسد خاوٍ، تذبل أوراق عمرها وتتساقط دون أن تعي فما عاد لوجودها قيمة، إلا من خلال عيون قد خرجت من رحمها ترقب وجودهم ونموهم في حجرها تستقي منهم بعض دفقات من هواء يمتلأ به خواؤها؛ فتتخذ أرواحهم منسأة يتكئ عليها عمرها.

في ظلّ مجتمع يراها ناقصة عقلٍ ودين بمعناها الظاهر فيحاسبونها على فكرة قد خلقت بها، وشيئاً قد أوجده الله فيها، أن تمتلك قلباً مليء بالحب قد يميل أو يعلو على الأقل في مواطن كثيرة، هو المستفيد منه فلو غلب بأسها قلبها لعلم أنّ الله يعلم أنها بذلك القلب سكناً ووطناً لا يستغني عنه الرجل أو يعتبرها عاراً لا يراها إلا بضاعةً أو جسداً.

شرفها وعمرها منوطاً بكلمة من رجل، قد لا يرقى لدرجة إنسان!

الفصل الأول

هناك نظرة تنساب داخل حنايا الروح، فتسقيها تحنانا ينبت بين جنباتها...

شجرة من حب تمتد لتبسط نفسها داخل كل خلجة فتتدفق وتنبض حياة في كل وريد.

عذرية روح

كان لذكائها المتقد ووعيها الذى تفتقت قريحته وهي طفلة أثراً كبيراً في إدراك ما يُحاك حولها، فقد امتلكت وعياً يفوق عمرها في مجتمع مازال متوارياً خلف أستار العادات والتقاليد التي تقيّأتها الكثير من المجتمعات المتحضرة وسارعت لتواكب التمدين.

فالوعي ابتلاء، والجهل فضيلة!

الوعي يفتح عين البصيرة، ويمنح مدارك العقل أبواباً، أما الجهل يرافقه صفاء نفسي زائف؛ لأنه يدع العقل في غيبته دون أن يدرك حقيقة أو ينال لذة فيمثل نوعاً من السلام الداخلي لأناس جلّ أمانيهم سكن يأويهم، وطعام يستهوويهم وشربة ماء ترويهم.

فما أشد القهر الذي تكابده! إذا ابتليت بالوعي مع أشخاص يتعاطون العالم المادي فقط، لايعملون العقل إلا فيم يفيد ماديتهم، أما الروح فهي تلك التي تخرج عند الموت، لا متطلبات ولا وجود لها فهي مجرد شيء يمنحنا الحياة دون اعتبار لوجوده.

ومن هنا كان لزاماً على مريم أن تشعر بالقهر وهي التي تملك روحاً حرة لا تسكن الأرض بل هي فيها مجرد ضيف، يعانق جسداً معلقاً بها وعقلاً قد احتار بين روح شغوفة بالحرية وعقل لا يستطيع أن يفك وثاقها حتى وإن كان له دوافعه ومبرراته.

وبهذا الوعي الذي ينمو معها، صارت تدرك صعوبة الحياة في هذا الواقع الضبابي وتلك البيئة المتعتقة في القدم.

موروثات تؤخذ كما هي، هذا ما وجدنا عليه أباؤنا، كأنهم تروس في آلة الحياة إن كسر أحدها استبدل بآخر في نفس العملية الديناميكية، ولذلك أدركت أنها تعيش في مؤامرة حياتية، شيء ما تراه في العيون عندما تتطلع اليها والأفواه وهي تغمغم، كلمة (أنت بنت) تسمعها كثيراً وهي صغيرة لم تكن تعي جيداً كلمة (عيب، لا يصح، اخفضي صوتك لا يجب أن يظهر منك كذا أو كذا..... الخ) فسمعت وأطاعت بل وتغلغل ذلك في تكوينها كما أرادوا، ولكن ذلك لم يمنع عقلها من أن يتساءل وقلبها من أن يستنكر، وعيناها من أن تحصى ما يدور حولها وتحلل الأفعال والأقوال؛ فقد وعت أن البنت لها قدر تولد به، وأعراف تكفنها منذ النشأة ورغم إدراكها لكل ذلك إلا أنها كلما مرت السنون، تزداد نفوراً ورفضاً لواقع لا يرضاه عقل ولا دين فكان أنفها شامخاً تقسم ألا تكون مطية لهم، وأنها مختلفة كيف لا وهذا الذي تحتضنه وتغذّى منه عقلها، وتشرّب قلبها حبه ليحميها، إنه الكتاب، نعم فسوف يمنحها العلم قدراً تصنعه بنفسها... قدراً يليق بأنفتها واعتزازها بنفسها. ولكن ما تفرضه العقول شيء، والواقع شيء آخر.

فرغم كل ما نسجته الحياة حولها من قيود في مجتمع مُتشدد إلا أنها كانت أثيرة لدى والدها وأخواتها الذكور ك، فلله في القلوب شئون! استطاعت تلك الصغيرة أن تسرق قلوبهم وضحكاتهم، فتناسوا جنسها مع نسيم روحها المُعتّق بعبق الطفولة البريئة، وتعاملوا معها كروح، ربما أرادوا بها أن يُطمئنوا تلك الطفولة التي وُئدت فيهم منذ الصغر؛ فالولد منذ بواكير طفولته لابد أن يخلع ثوب الطفولة، ويرتدي ثوب الرجولة الفضفاض.

يحاول أن يملأه فيبدو أكبر من عمره، وتطل علينا مريم خفيفة الظل، ذات العقل المتوهج ذكاءً، صاحبة الروح العاشقة للحياة، يبدو ذلك جلياً في حديثها ونقاشها لكل كلمة تسمعها دون تردد أو وجل، هذه الجرأة في محاولتها استكشاف ما حولها ومحاولة التواصل معه من زهور وطيور وأناس حتى من يكبروا أبيها سناً كانت فاكهة البيت بل البلدة كلها، نشأت في بيئة صافية حيث يتهادى النيل كغيداء مياسة القد،

يسيل حلو حديثها ليسقي قلوب عطاشى الحب، يحتضن بين جانبيه أشجاراً باسقات تختال علي شاطئيه، تكاد تلامس السماء زهواً وتيها ، تشرق الشمس بوجهها الضحوك، لتشارك في هذه اللوحة الكونية، فتلقي أشعتها الذهبية على مائه فتتراقص كحوريات، قد زادهن ضوء الشمس جمالاً.

في جوٍ ساحر، في أحد بيوت قرى الصعيد، بمدينة أسيوط وهيئة البيوت في الصعيد تتشابه، فقد بنيت من الطوب الأحمر أو الأبيض، وما زال بعضها متمسك بقدمه يستدفئ بجدرانه من الطوب اللبن الذي كان هو الأساس في بناء القرى قديماً قبل أن يزحف الطوب الأحمر، وتظهر البيوت ذات الأدوار المتعددة.

تعلو معظم الأسطح، أكوام من قش الأرز وحطب الفول والذرة؛ فهم الوقود الرئيسي في الأفران المبنية بالطين في ساحات المنازل؛ فالفلاح الصعيدي مكتفي ذاتياً، إذا وجد القمح الذي يطحنه لخبزه، والخضار الذي تخرجه أرضه التي رواها بعرقه ورعاها بقلبه، واللحوم من الدواجن والبط والأوز الموجود في حجرات أو عشش خاصة بها على الأسطح أو في جزء من البيت، وكذلك الجبن واللبن والسمن من ألبان بهائمه التي يطعمها ويرعاها في حظيرة هي جزء من بيته بما تحويه من بقر وجاموس ولابد من أن يملك حماراً ليحمله إلى حقله إذا كان بعيداً، أو يحمل عليه بعض الأجولة الممتلئة وقت الحصاد ، أو بعض طعام مواشيه من البرسيم، وكذلك أعواد الحطب الجافة التي يأتي بها لوقود الأفران ويكدسها فوق الأسطح، وكذلك الخراف التي يربيها إما لبيعها أو ليأكلها. كثيراً ما تقوم النساء بمساعدة الزوج على العناية بها وتنظيف أماكنها وصنع أقراص من روثها (أقراص الجلة) التي تستخدم وقوداً للأفران.

والمرأة في الصعيد مازالت في خدرها مهما وصلت من مستوى تعليمي فما زالت تخضع لقيود العرف والتقاليد وأحكام القبيلة، فلم نسمع عن سفورٍ أو تحرر في هذه الأماكن التي هي أساس مصر، وإن كانت هناك أشكال من الحجر المجتمعي على النساء في هذا المجتمع الذي مازال يتمسك بشكله، ولم يتماهى في التيارات

المعاصرة بل ظلّ محتفظاً بكنهه وبنيانه الخالد خلود الآثار الفرعونية المنتشرة في ربوعه.

في أحد البيوت عاشت تلك الحورية تنتمي للبشر في جنسها، ولكنها تملك جمال الحور، مريم، الرقيقة، وضّاءة الوجه، الابنة الصغرى لعائلة مكونة من تسعة أفراد.

لم يكن بيتها يشبه تلك البيوت فقد كان بيت أحد كبراء القرية، كان بناء من أربعة طوابق يحيطه سوراً عالياً تلفُّه الأشجار من جوانبه الثلاث، وأمامه باحة كبيرة يتوسطها طريق طويل إلى بوابة حديدية مزدانة بفروع اللبلاب المزهرة، وقد مهّد وزرع على جانبيه الورود. وفي ركن الباحة يوجد مجلس تتعانق فروع اللبلاب لتغطي سقفه الخشبي، وتزينه النباتات المزهرة، وسطه أريكة ومجموعة من الكراسي الخيزران المتينة خُصصت لأهل البيت إذا أراد أحدهم أن ينعم بالجو الرائع بعيداً عن الأعين، أو أراد السيد سلمان أن ينفرد بأحد أبنائه في جوٍّ من المودة والألفة.

وكان هذا المكان المفضل لمريم لممارسة القراءة أو الجلوس مع صديقتها لاستذكار الدروس إذا ما خلا البيت من الرجال.

وقد اختار أخوها بعض أشجار الفاكهة والخضروات، وزرعها في الأرض الملحقة بالبيت؛ ليصير هذا المكان حيث ولدت مريم، وترعرعت قطعة من جنة قد وضعت في الأرض

تلك الفتاة بنت الثامنة عشرة المحببة إلى أبيها الحاج سلمان الذي كان كبيراً لعائلته مهيب الجانب، مسموع الكلمة، كان تاجراً كبيراً ويملك أموالاً كثيرة، ولكن الأرض بالنسبة له ولأي صعيدي هي كعرضه التي لا يهملها أو يفرط فيها؛ فكان له خمسون فداناً من الأراضي الجيدة ورث نصفها عن أبيه، واشترى الآخر بما كسبه من تجارة المحاصيل الزراعية، يزرع أرضه أفراداً من عائلته وبعض أولاده، لم يكن الحاج سلمان رجلاً عادياً، وما منحه ذاك التفرد لم يكن غناه فقط، واتساع رقعة أرضه، وكثرة أمواله

وإنما كان رجلاً حكيماً شجاعاً لا يخاف في الله لومة لائم، يعرف حدود الله فلا يجور ولا يتعالى؛ فأحبه الناس وأكبروه؛ فيلجأون إليه في المشورة أو رفع الظلم عنهم إذا ما اقتضت الحاجة، ورغم أن أخاه الأكبر هو العمدة، ورثها عن أبيه، ولكن دوره كان هامشياً مع أهلها، ولم يكن ذلك يؤذيه؛ فكل ما يهمه هو المركز فقط ولكثرة رواد بيته ومريديه؛ أعدّ الحاج سلمان مجلساً يُجالس فيه أهل بلدته ليفصل في نزاعاتهم وديّات قتلاهم، وما أكثر القتلى في الصعيد فمازال الأخذ بالثأر متأصّلاً، لم تستطع الحياة أو المتغيرات أن تمحيه.

فمن قتل يُقتل مهما توالت السنون، وقد يقتل الصعيدي ويسلم نفسه للشرطة؛ إذ يعتبر ما فعله شرف له، فيكفيه أنه يمشي مرفوع الرأس أمام الناس ولو قطعت بعد ذلك؛ فلا يعنه في شيء مادام قد أخذ بثأره.

والحاج سلمان رجلاً فارع الطول، ذو أنفٍ أفطس، وعينان تُشبهان عين الصقر، وشفتان غليظتان يعلوهما شارب مميز يختال به، وبحركة لا إرادية يبرمه بيده، فقد كان كثّاً هذّبه من الطرفين ليصير له شكلاً مدبباً مرفوعاً لأعلى، يرتدي عمامة كبيرة، وعباءة فخمة تليق لمن هو في مثل مكانته ومهابته، لا صوت يعلو فوق صوته وكلمته قانون يسير على الصغير والكبير، وماذا لفتاة أكثر من ذلك لتكون فخورة بأبيها؟ تنصت إلى ما يقول وكأنها أرضاً تتشرب ماء المطر فتنتعش روحها وعقلها، وما أن يفرغ من مجالسة أحدهم حتى تباغته، وتجلس أمامه جاثية على ركبتيها؛ تتطلع إليه وفي عينيها ألف سؤال، ولكن لا تستطيع أن تبلورها في أسئلة لصغر سنها فيتبادر إلى ذهنها سؤال واحد:

ماذا يريد هؤلاء الناس يا أبي ؟!

فيربت على خدّها بأطراف أنامله ليجيب عن سؤالها:

إنني أقضي حوائجهم يا مريم.

وقبل أن يدخل في أتون أسئلتها الذي لا يهدأ، يمسك بكفها الصغير ويمضي بها متعجباً لتلك البنت التي لم يكن من أخوتها من هو مثلها حتى الذكور.

ترنو إليه بعينين حائرتين، ثم ما تلبث أن تعقد أناملها الصغيرة حول يده وأصابعه الغليظة، ليلقيها في حجر أمها قائلاً:

ماذا أرضعت هذه البنت يا أم سالم؟ ثم يغادر وتصاحبه ابتسامة لا ترحل عنه إلا عندما يصل لمجلس الرجال، ومريم في حضن أمها.

تتابع خطواته وهو يتجه نحو الباب وقلبها يمتلئ به حباً وتيها؛ فقد تعلمت منه كثيراً من أمور الحياة، وإن لم يكن عقلها الصغير يعيها كاملاً إلا أنها تشبعت بها، فصارت كالشجرة الصغيرة تُسقى في الصغر، وكلما شبت اكتست حكمة ومعرفة ودراية بالأمور.

لم تكن تشبهه شكلاً إلا أنها ورثت عقله وذكاءه... بشوشة، حنونة، لا تتوانى عن تلبية طلباته هو وأشقائها الذكور.

لها أختان تزوجتا في عمر الخامسة عشر...

أختها الكبرى (منى) مات زوجها؛ قتله أحد أقاربه أخذاً بالثأر ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وهو عائد من عمله؛ فقد كان يملك محلاً لبيع الحبوب الزراعية وتركها ولم تتعد الثانية والعشرين. تفوق البدر حسناً، فمازالت زهرة تفتق برعمها حديثا وتوهج جمالها ،تركت الطفولة، لتمنحها الأنوثة كل أدواتها التي وإن اختفت تحت ما تتوشحه من سواد فتظلّ كبدرٍ في ليلةٍ شديدة السواد قد زادته حلكة السماء نوراً، والمرأة الصعيدية إذا مات عنها زوجها عكفت على تربية أبنائها.

ولكن الطامعين في المال والجمال ونسب الحاج سلمان كثيرون، ذاع صيت جمالها حيث تناقلته نساء القرية، كن يتهامسن في عزاء زوجها، تقول أحدهما للأخرى

هامسة: سبحان الله إنها صارت أجمل من السابق، كذلك كان زوجها لا يجعلها تختلط بأحد أو تذهب لعزاء، يُضن على الناس برؤيتها، فترد الأخرى وهي تخفي شفتيها كي لا يسمعها أحد هامسة: من المجنون الذي يترك هذا الجمال ويموت.

ثم يركزن أعينهن على هذا الجمال الباكي، وأمها تلف ذراعها حول رقبتها، ومن حين لآخر تجذبها إلى صدرها باكية، وكيف لا فسوف تموت ابنتها وهي حية، فمن قُتل زوجها لم يقتله وحده بل ترك خلفه زوجة ثكلى، وأطفال يتجرعون كأس اليتم، حتى وإن ترك لهم المال، فمن سيمنحهم حب ورعاية الأب ومن سيعوّض زوجة عن زوجها الذي أفضت إليها بسرها واطلع على سريرتها فاطمأنت وآوت إليه، تتمنى أن تجمعهما الحياة حتى يشيبا معاً ويواجها الحياة هو بصدرٍ مفتوح، وهي خلفه تحتمي به، وتشد من أذره، وتحتضن ضعفه، وتحتمي بقوته.

لم يمر الكثير فبعد عام توافد الكثيرون من كبراء القرية، بل ومن وجهاء القرى المجاورة للزواج من الشابة ذات الحسب والنسب والجمال، ذات الثلاثة وعشرين، فما كان من عم أولادها الستيني إلا أن طلب الزواج بها؛ فقد ماتت زوجته منذ بضع شهور وهو الأولى بزوجة أخيه، وليتربى ابنيها الصغيرين في حجر عمهما.

بكت كثيراً حتى روت الأرض؛ فقد فارقتها البسمة منذ زمنٍ، ويبدو أنها قد هجرتها بلا رجعة، وصارت ملوحة دموعها هي طعام شفتيها اللتين ذهبتا نداوتهما، فقد سقاهما أجاجه حتى جفتا، رفضت أن تتزوج به أو بغيره، فيكفيها ولديها، فهما رجلاها، ولا حاجة لها برجل لتكون في حماه، ولديها أبوها وأخوتها يكفيانها حتى يكبر ولديها هكذا رددت على مسامع أمها وأختيها، ولكن الأعراف والتقاليد أبت إلا أن توافق مجبرة؛ فقد ماتت بموت زوجها ولا يضر الشاه سلخها بعد ذبحها فقد كان حسنها وبالاً عليها، هكذا قالت لها أمها وهي تحتضنها باكية لا تملك لها شيئاً.

بكت مريم لبكائها، وصرخت فيها أن تصر على الرفض؛ فهي حياتها ولابد أن يكون لها رأي، ولكن أي رأي يسمع وسط هذه الجدران المصمتة والعقول التي لا تقبل إلا بما قد جرى على من هن مثلها حتى وإن كان أبوها هو سيد القرية.

فلم يستطع أن ينقذها فقد كانت مكانته سيفاً على رقبته ورقبة أولاده، فالتقاليد شرع بالنسبة للرجل الصعيدي ولو ضحى بفلذة كبده من أجلها. ورغم أنّ قلب الأب كان يتمزق لكن عقل السيد يلجمه؛ فكثيراً ما أشاح بوجهه كي لا يلتقي بعينيها الباكيتين على زوج راحل وزوج قد غُصبت عليه بإرادتها المقيدة. فانتقلت من حجرة في بيت عمها إلى حجرة أخرى في البيت الكبير الذي يضم عمها العمدة وهو والد زوجيها الراحل والحاضر، وزوجاته الاثنتين وثمانية من الأولاد الذكور، كان أصغرهم زوجها الذي اغتيل غدراً، وأكبرهم هذا الذي آلت إلى عصمته وبين ذراعيه، التقت النضارة بالذبول، الشباب والشيخوخة، النعومة والخشونة، وكأنما التقت أرض وسماء.

كان البيت الذي تسكنه منى عبارة عن بيت كبير متعدد الطوابق يشبه بيتها إلا أنه كان يسمى دوار العمدة بما فيه من مندرة كبيرة للضيوف وغرفة للأسلحة تسمى (السلاحليك).

ويساعد العمدة بعض العسكر وشيخ الغفر في حفظ الأمن والأمان بالقرية وحمايتها من الغرباء ولصوص الماشية والمحاصيل، فلم تكن القرية مغلقة على أهلها وخاصة أنها مفتوحة من ناحية الجبل الذي يهبط منه الغرباء لشراء بعض مقتنياتهم ومنهم الفارين من أحكام أو المطلوبين في ثأر، كان على العمدة أن يحفظ كل صغيرة وكبيرة، ويعرف ما يدور ويتحكم في كل الأمور، أما أخوه الحاج سلمان فكان قاضياً لأهل القرية بما يملكه من علم وثقافة فقد حفظ القرآن كله في كتاب القرية، والتحق بالمدرسة ولكنه اكتفى بشهادةالإعدادية ليراعي تجارة أبيه بعد وفاته، عندما ضاق دوار العمدة بأولاده وأحفاده، قام ببناء مجموعة من البيوت المتجاورة كأنها مستعمرة لرب البيت.

الآمر الناهي، خاصة إذا كانت إحدى نساء البيت ،فكان أولاده وزوجاتهم وأحفاده طوع بنانه..

تزوجت منى في هذه المستعمرة من ابن عمها المُسن بورقة مكتوبة، صكّ عبوديتها كما قالت لمريم، لم تنطق إلا دموعها، ولكن النساء دائماً يبكون، فقد تكون دموع فرح أو حزن من يأبه ومن يرى.

مرّت سنوات على هذا الزواج وشيئاً فشيئاً ضويت، وهي مازالت في الثلاثين وتغضّن وجهها الشاب وكأن رحيق الشباب قد تقاطر من سنواتها، اعتصرته أيدي قريبة في الدم والنسب ولكنها أبعد ما يكون حساً وروحاً.

أما الأخت الثانية علياء كانت تكبُرها بخمس سنوات تملك بشرة أبيها الخمرية، وبعضاً من ملامحه، رشيقة خفيفة الظل لا تكف عن الضحك إذا اجتمعت الأخوات الثلاث، تزوجت أحد أبناء عمومتها أيضاً؛ ففي الصعيد (البنت لابن عمها) كانت قد وعدت له منذ الطفولة؛ فنشآ يعلمان أن علياء لسند وسند لعلياء، وكأنّ ما اتفق عليه الكبار منذ الصغر عقداً موثقاً لا ينقض ولا يستطيع أحد الاعتراض عليه، ولحسن حظها ارتضى كل منهما وشعر أنه نصفه الآخر فكان يحبها وبادلته هي الأخرى حباً بُحب، كانا يسترقان النظرات في الزيارات والمناسبات التي تقام في العائلة وما أكثرها إلى أن تم عقد القران، ثم الزفاف بعد أن أتمّت عليا الإعدادية وأتمّ سند شهادة الدبلوم ثم عمل موظفاً في مدينة سوهاج فانتقلت للعيش معه، كانت تأتيهم بين الفينة والأخرى مرحة سعيدة، فقد كانت سعيدة الحظ لخروجها مع زوجها خارج البلد ونطاقه المتشدّد والحصار المضروب على أهلهة؛ فقد كانت أشبه بنظام القبيلة وإن كان هذا غير الواقع فمهما ابتعدتا ما زالا تحت قيود الأهل وأعرافهم.

كان زوجها حنوناً طيب القلب، يعرف كيف يكون الرجل المحب لزوجته وأهله، وكان هذا من حسن حظها، ولذلك كانت تشعر أنها مختلفة عنهم وإن حملت إرثهم في

عقلها، فهناك شيء يمنحها ما تحتاجه في كنف زوجها.

كان للحاج سلمان أربعة من الذكور، اثنان لم ينالا أى تعليم، تعب معهما، ووفر لهما كل السبل فقد أراد أن يكون أولاده على قدر من التعليم؛ ليؤدي عمله على أسس علمية حتى يبرع فيها، ولكنهما لم يكن لهما طاقة بمواصلة التعليم، كان أكبرهم سالم الذي كثيراً ما كان مثيراً للمشاكل مع الطلبة والمدرسين حتى أنه ذات يوم قد قام بخنق أحد زملائه، ولولا تدخل ناظر المدرسة وأحد المدرسين لكان سبباً في قتله؛ فقد كان سالم قوي العضلات ممتلئ الجسم، وكان شكله ومكانة أبيه أدوات استخدمها لإرهاب زملائه

فما كان من أبيه إلا أن منعه من الدراسة بعد أن أتمّ الشهادة الإعدادية، أمّا القرآن الذي كان الحاج سلمان حريصاً على تحفيظه لأولاده، فلم يكن لسالم منه نصيب إلا القليل، وذلك لأنه كان ينال شيوخه ما نال مدرسوه من تنمر وتطاول، وهكذا ظلّ أبوه يعاني من تقويمه، وأبعده عن الأرض والفلاحين وجعله معه في تجارة الحبوب.

تمضى السنون ويبلغ سالم عامه الأربعين، لم تفارقه طباعه؛ فهو كنمرٍ شرس، ضخم الجثة غليظ الصوت والقلب، صارم في كل شيء لايشبه أباه إلا شكلاً، ورث طوله الفارع وشفتاه الغليظتان وخالفه في شكل العينين الضيقتين والأنف الطوي، ورغم رعونته فلم يكن يقيم لشيء وزناً إلا أنه كان يحترم حضور أبيه فلا ينبث ببنت شفة أمامه، ويقف أمامه كالتلميذ البليد كلما أخطأ، أو صدرت عنه شكوى أو مظلمة، يوبّخه أبوه، ويتوعّده فيطأطئ رأسه حتى يملّ منه؛ فيصرفه داعياً له بالهداية متخوفاً عليه من تلك النفس التي تسكن جوفه، والمفارقة أنّ سالم الذي يكسر كل القواعد ويبتعد عن نهج أبيه في كل شيء، فلا يحرم حراماً ولا يحل حلالاً؛ كان إذا التقى بالناس لا يتحدث إلا بالأصول والتقاليد والمحافظة على الأعراف، وعندما ينصرف كان الناس يتحدثون بهمس قائلين:

سبحان من جعل من ظهر العالم فاسد!

وقد دعت معاملته الفظّة من صوت مرتفع وتشاجر مع الذين يقومون بخدمتهم من رجال ونساء جعلت أباه يطالبه بالانتقال إلى بيت آخر فقد كان كثير الصراخ والإهانة للصغير والكبير، لسانه كالسوط الحاد لا يسلم منه أحد فضاق أبوه به ذرعاً، وطالبه أن يعيش في بيت مستقل متحججاً بكثرة عياله، وأنه يريد له الراحة والاستقلال. وقد اتخذ التجارة في الحبوب والمحاصيل الزراعية عملاً له تحت إشراف أبيه.

أما الثاني صابر لم يكمل تعليمه هو الآخر، ولكنه حفظ القرآن الكريم كاملاً،وكان يعشق الموالد والمواويل التي كان يسمعها من بعض الذين يغنونها على الربابة، فكان يطوف الموالد ليسمع عن أبي زيد الهلالي سلامة والجازية الحجازية، والزير سالم، كثيراً ما كان يعشق تلك الأهازيج وهذه الحيوات التي كان يتمنى أن يكون أحد أبطالها.

ورغم شروده في حلقات الذكر، وخلف المنشدين إلا إنّ أباه لم يكن يثقل عليه إلا في عدم تأخيره ليلاً؛ فقد سبقه في عشق هذا الجو الأسطوري، لم يكن لصابر علاقة إلا بالأرض كأنه يعيش في كوكب قد صنعه لنفسه، يخرج باكراً إلى أرضه، مع المزارعين وقد خصص له حمارا يمتطيه فيشعر بأنه سيد الدنيا ولكن في تواضع ولين جانب. يمر بين الناس كنسمة ندية مشرق الوجه بإبتسامة لا تغادره ويد ممدودة دائماً بالتحية والسلام ،ويقابلونه بالترحاب والسرور، كان على النقيض من سالم كأرض وسماء، فصابر كان يعلم تماماً أنه يحيا فوق أديم الأرض ضيفاً، فلابد أن يعرف كيف يكون خفيفاً خلوقاً، ليخرج منها بذكرى طيبة بدلاً من أن يخرج منها مذموما مدحوراً وهذا ما كان يثير سخط سالم فيعيب على صابر سلوكه هذا، فكيف وهو ابن السيد يفعل ذلك؟! ويجالس الفلاحين على الأرض ويأكل معهم ويسامرهم بل ويمتطي حمارا مثلهم وهو من يجب أن يمتطي حصاناً أصيلاً يوافق منزلة أبيه ومكانته.

وفي أحد الأيام دخل سالم حانقاً، يتطاير الشرر من عينيه ليشتكى لأبيه من أفعال صابر وتهاونه مع الأجُراء من الفلاحين، فقد رآه ينزل عن حماره ذات يوم بعد أن دعاه

أحدهم ليتناول الغداء معه، فنزل عن حماره وتناول معه وجبة عبارة عن جبن حادق وخبز ناشف وبعض الجرجير والبصل، وقد ناداه سالم عندما مرّ عليه بحصانه، ولكنه أبى أن يترك الرجل إلا بعد أن ينتهي من طعامه.

فكان الأب حكيماً امتص ثورته؛ فهو يعلم أنه يرغي ويزبد ثم ما يلبث أن يهدأ، ثم تحدث مع صابر فهو يعلم كل ما يدور في القرية وهناك من يخبره بكل ما يقوم به أولاده لحظة بلحظة، وهو يعلم أن تصرف صابر لايعيبه فلابد أن يشعر المزارعين أنه أفضل منهم، فيؤدون عملهم بحب؛ فربت على كتف صابر قائلاً: لا عليك يابني، لا تغضب من أخيك فهذا طبعه، والطبع لا يغادرنا إلا في القبر، فيقبل صابر رأس أبيه ويده ويبتسم قائلاً:

لا تقلق يا أبي فهو أخي لن أغضب منه أبداً، وسأدعو له بالهداية.

وتمر الأيام وصابر يحاول تفادي ما يغضب سالم حتى لا يحزن أبيه ،إلا أن جاء يوم تشاجر سالم مع صابر وكاد يعتدي عليه بالضرب، لولا أن شخصت صورة أبيه أمامه وعلم أنه ما كان ليغفر له وقد يطرده نهائياً؛ ففي آخر مرة حذره من ذلك وكأنه كان يعلم أن خلافا كبيراً سيحدث بينه وبين صابر فقال له والده:

إياك أن يراك الناس وأنت تتشاجر مع أخيك مهما كان الخلاف اجعله لايتعدى جدران البيت وإن خالفت يا سالم لن تنجو من غضبي عليك. فكفّ يده عن أخيه خوفاً من غضبة أبيه .

وهذه المرة لم يفعل صابر شيئاً سوى أن سمح لأحد المزارعين في حقلهم بترك عمله والذهاب إلى بيته ليستريح وذلك لظروف مرضه، وعندما راجع سالم الدفتر المخصص ليومية العمال في الأرض، وعرف أنّ أخيه قد أرسل له أجره، هاج وماج واحتدّ على أخيه وكاد يقتله فغضب صابر الذي رغم أنه يكن يبدو قوياً كسالم فقد ورث شكل والده تماماً إلا أنه كان قصيراً عنه وبشرته خمرية، ورغم ضعفه الواضح إلا أنه كان

يملك يداً قوية بهرت أذهان الناس عندما استطاع منذ شهرين أن ينقذ بقرة كانت وقعت في بئر الساقية وكان لابد أن ينزل شخص فيحرر قدمها المحشورة ويرفعها لكي يقوموا برفعها، والآن

في شجاره مع سالم كان يمكن أن يطرحه أرضاً بل ويكسر فكّه ولكنه هدأ وتذكر أبيه؛ فتركه بعد أن صرخ في وجهه بنبرة لم يرها سالم من قبل، فخاف من أخيه، وهرع إلى أبيه ليخبره.

دخل سالم وقد انتفخت أوداجه، نظر إليه شذراً فوقف صامتاً ضاماً يديه فوق بطنه المتدلي، وخلفه صابر الذي دخل ليحيي أباه ويُقبل يده

فبادرهم الأب قائلاً:

ما الأمر وماسبب ثورتك يا سالم؟

سالم:

صابر يا أبي يزيد في تدليل المزارعين، ويبدد المال عليهم فقد دفع أجرة أحدهم اليوم وهو في بيته.

الأب:

ماذا حدث يا صابر؟

صابر:

إنه عم مسعود يا أبي، رجل عجوز ولو لم يخرج للعمل فسأرسل له أجرة يومه؛ فقد سافر ولده الوحيد للخارج ولا يعرفون عنه شيئاً بعد أن أفنى عمره عليه، وكان منذ صغره يعمل في أرضنا رواها بعرقه وجهده، ورغم ذلك يُصر أن يأكل من عمل يده

وكثيراً ما أساعده لمرضه وكبر سنه، واليوم كان مريضاً جداً وحزيناً على زوجته التي تموت وهي تنادي على ابنها الذي نسى أنّ له والدين أحقّ به في كبرهما.

هل أكون قاسيا عليه ؟! ألا يكفيه ولده ومرضه وعوزه، هل أعين عليه الحياة فيموت كمداً ؟!

ثم أنني قمت بعمله بدلا عنه فماذا يغضب سالم ؟!

ألم يقض الرجل ما عليه من عمل سواء بيده أم بيد غيره ؟

لقد رفقت به يا أبي لأجلي وليس لأجله كي يتغمدني الله برحمته لأني رحمته، ومنحته أجر عرقه الذي صار جزءاً من أرضنا.

أدار الأب رأسه ناح سالم الذي وقف مُنكس الرأس لا ينبس ببنت شفة، ثم استأذن أبيه وهرول للخارج خوفاً من توبيخه له.

نظر الأب إلى صابر وعلى شفتيه ابتسامة رضا، فكل يوم يزداد يقينا أن صابر ليس ابنه بالدم فقط بل ابن روحه، وهو الغيمة التي تشبعت منه خيرا وراحت تسقي نفوس الناس حبا ولينا. وأنه الأحق بأن يخلفه في هذا المجلس

ثم أشار إليه فأتاه من مقعده جريا فقام إليه واحتضنه وقال له:

نعم التصرف يا ولدي، كن كما تريد فأنا راضٍ عن كل ما تفعل ولكن لا تعادي أخيك وادع له بالهداية.

ابتسم صابر ونظر إلى أبيه نظرة رضا وتفهم لكل ما يقول وأومأ برأسه قائلاً:

أفعل يا أبي ولا أعصي لك أمراً

استأذن صابر وخرج إلى عمله ليخالط الناس الذين كانوا يلتفون حوله ويدنونه من مجالسهم فقد كان يشاركهم أكلهم البسيط حيث يقومون بفرش حصيرة من الخوص وإن لم يجدوا فبعض الأجولة من الخيش، أما في الشتاء فكانوا يستعملون قش الأرز ليحلسوا تحت أحد أشجار الكافور أو التوت ويخرجون مازودتهم به زوجاتهم من طعام من جبن قريش وبعض الخضروات التي أخرجتها الأرض من خيار وطماطم وفلفل أخضر، وأحياناً الفطير والرقاق مما تخبزه النساء من القمح معجوناً باللبن ومضافاً إليه القشدة، يأكلونه في الشتاء ليعطيهم طاقة من الدفء، وفي وقت الاستراحة صيفاً بعد صلاة الظهر ووقت الحرارة الشديدة يتوسّد الرجل منهم جلبابه واضعا إحدى يديه تحت رأسه والأخرى يغطي بها عينيه حتى ينهي قيلولته، ليستقيظ وقت صلاة العصر وقد أخذ قسطاً من الراحة واتقى حرارة الشمس التي قد تضرهم فتصيببهم بضربة شمس أو دوار نتيجة التعرق الشديد، أما الشاي فكانوا يتلذذون بالشاى الذي يصنعونه على نار الحطب حيث يقومون بوضع قطعتين من الطمي اليابس وهو مايسمونه (الكانون) وبينهما أعواد الحطب الجافة من الذرة أو القطن أو حتى الفول ويوضع براد الشاي عليه أو يقومون بشي الذرة والبطاطا في ليالي السهر لري المحاصيل، كانت هذه سهراته وأيام سمره بين هؤلاء الناس الذين كان يشعر بودهم الخالص له فقد كان يعتبر نفسه منهم ،فماذا يزيد عنهم سور أنه ابن الحاج سلمان وهذا ليس له فضل فيه، فهي أقدار فقد كان من الممكن أن يكون هو مكان أحدهم وهو مكانه، ولكن الله جعله في هذا المكان ليختبره ولن يفشل في الإختبار.

في الكثير من أحاديثه معهم كان يتجاذب معهم أطراف الحديث عن الأمور الدائرة في البلد يخالطها بعض النكات أو المواويل التي يحفظونها من أفراحهم، ويعرفون غرام صابر بهذه الأشياء؛ فكان الحديث دافئاً في أوج أيام الصقيع بفعل الود والمحبة التي تملأ المكان صار بينه وبين الكل محبة وقرب شديدين فصاروا يحكون له ما يتعبهم وهو يوصل شكواهم لأبيه؛ فيساعدهم بالأموال أو بالدعم والسند.

كان أبوه يشعر بالسعادة عندما يراه بهذه الصفات الطيبة، فقد كان طاهراً معطاءاً كأرض خصبة، يرضى ربه ويرضى عنه هو وأمه.

تمنى أن يكون قريباً من الناس هكذا ولكن لابد أن تكون هناك مسافة حتى تظل المهابة منه.

لا يعود صابر إلا مع غروب الشمس يتناول العشاء مع أبيه وزوجته وأولاده، ثم يأوي إلى فراشه باكراً، ومع كل محصول يعطي نصيب الفقراء يوم الحصاد ثم يضع أموال ما يحصده من جني الأرض في يد أبيه بعد أن يُقبّلها ويقبل جبين أمه ويدها. كان أكثر أخوته حناناً ومروءة. عاش صابر كنسمة باردة في صيف قائظ، فكان في حياته مع زوجته وأهله ومن خالطوه كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة.

إلى أن جاء يوم مشئوم تحولت حياة صابر بل قلب هذا اليوم حياة البيت بل البلدة كلها وكأنه وتد البيت الذي خلعته ريحا دبورا.

مات صابر بعد معاناة شديدة لم يعرف لها أحد سببا...

تتذكر مريم تلك الذكريات التي تكوي روحها كأنها سياطاً قد نقعت في زيت فصارت أشدّ قسوة وتمزيقاً.

تجلس في الحديقة التي زرعها تتذكر ما حدث وكأنه كان بالأمس تلك الحادثة التي قلبت حياته وحياة العائلة وتحول صابر في لمح البصر إلى ميت حي شبح عينين جاحظتين تدوران في محجريهما طيلة الوقت إلا إذا أخذه سلطان النوم، وسرق من وعيه بعض لحظات يغيب فيها عن الحياة ولكن ماهي إلا ساعة ونيف حتى يقوم فزعاً يتخبّط في نفسه ثم يدور في البيت كالمجنون يحاول أن يشج رأسه التي كثيرا ما تناثرت الدماء منها حتى تتلطخ الجدران وكأنه نذر لابد أن يوفيه، وأبواه وأخوته وزوجته يراقبونه وقلوبهم تتقطع حسرة وعيونهم تنزف دمعاً يحاول أخوته الذكور تهدئته وبين بكاء وصراخ وقلوب ترتجف حسرة وحزناً تخمد ثورته بأنين يمزق نياط

قلوبهم، ومريم تحتضن طفليه الذين تتخبط أعينهم في هذا المشهد المأساوي ما بين أب يصرع ويصرخ وعيون كبار باكية وأيادي تحاول رأب هذا الصدع الذي تفتق في جدار عائلة كانت جل حياتها هادئة. ومريم في ذهول باكية مرتعبة، تنظر إلى عينيه اللتين لم تكن البسمة تغادرهما فلا ترى إلا الذبول والتوهان.

ثم تمعن النظر إلى ذلك البريء الذي تحول لوحشٍ تخاف أن تقترب منه ودموعها تتوسله أن يعود أن يتخلص من هذا الكابوس الجاثم فوقه ولكن هيهات، فأي لعنة قد سكنت هذا الجسد؟! وأي عذاب يلاقيه؟!

ينتهي المشهد بإنهاك شديد، يؤخد صابر إلى حجرته مرتعدا فتدثره زوجته وتجلس إلى جواره، تمسح بيدها على رأسه المتعرق وتغرق في دموعها ما أن ينام حتى تخرج لولديها تحتضنهم فقد مُنعا أن يدخلا على أبيهما، خوفاً على سلامتهما.

تغالب مريم دموعها، وتتنهد تنهيدة حارة تتذكر آخر مرة رأته فيها قبل أن يصيبه ما أصابه، عندما خرج في المساء لمباشرة ري الأرض مع المزارعين، فهو عاشق لليالي السمر، لم يكن يخرج إلا بعد أن يحتضنها ويُقبلها بوجهٍ باسم وصدره الحنون، كانت تحب وجوده جداً، وتوصيه أن يجلب لها معه أكواز الذرة أو البطاطا المشوية من سهراته، بل كانت تتمنى أن تذهب معه ولكن هذا لا يجوز فقد كان هذا للرجال فقط هذا عملهم وسمرهم.

في أحد الأمسيات تغير وجه حياته، سلبت منه روحه، خرج و لم يعد مع تباشير الفجر كعادته، ولما توسطت الشمس السماء في وقت الضحى، أحضره الفلاحون الذين كانوا معه في أرضه إلى البيت الكبير، يحملونه فجرى أخوته الذكور لحمله إلى فراشه ملابسه تقطر ماء وشعره قد غطاه الوحل، نفس ضعيف يخرج من صدره وأشياء عالقة في فمه، أخذت زوجته تحاول هي ومريم سحبها حتى عاد التنفس منتظما لكنه بطيئا، الكل يقف في انتظار الطبيب دموع تتقاطر وأيادي قد وضعت على الصدور لهفة وحزنا وقلوبا مضطربة تسمع دوي نبضاتها.

هرج ومرج من تجمع الناس أوقفه صوت الحاج سلمان يأمر الكل بالانصراف ويطمئنهم أن صابر بخير وسوف يتعافى قريبا.

أحضر سالم الطبيب الذي ما أن رفع ثياب صابر حتى وجد سحجات وكدمات وأثار يد زرقاء على جسده وكأنّ أحدهم كان يعتصر صدره ورقبته وأثار أظافر قد غرست في ذراعيه وظهره. هال الطبيب ما رأي وملئت الغصة قلب أخوته وأهله، فهم لا يعلمون ما حدث له، وصابر مسجى على فراشه، قد كست عيناه سحابة حمراء مع بعض الزرقة، يتمتم دون أن تتبين ما يقول وكأن أحدهم قد اقتلع لسانه. يحملق في سقف غرفته ودموعه تسقي وسادته.

حققت الشرطة في هذا الحادث فمن يفعل ذلك بصابر بالقرية كلها تبكيه؛ فكل أم هي أمه وكل أب هو أبيه، وجميع الشباب أصدقاءه، فأيّ يد سوء قد بطشت به وأي قلب أسود أراد به شراً وهو الطيب الروح والقلب والمنبت، فالكل حزين يبكيه، والقرية غشيها الحزن وكأنه قد ابتلعها ليل سرمد، و الشيخ سلمان قد زعزعت جذوره من الحزن على صابر، كسرت أضلعه، وأصيب بحالة من الهم والحزن لم تفارقانه، وحاول بكل جهد أن يعرف ما حدث لفلذة كبده ولكن دون جدوى.

حزنٌ شديد قد سكن هذا البيت الذي كان الكل يعتبره قلعة من قلاع النور.

فأنّى للحزن أن يتسوّر أسواره العالية، وفي خضم الحزن تتواتر الروايات والأقاويل، كلها سيناريوهات تحاول الوصول لما حدث لهذا الفتى الثلاثيني ذو القلب الذهبي ذهبت أقوالهم مذاهب عدة في تفسير ما حدث له؛ فقد أخرجوه من أحد مصارف الري وجهه مغموراً في الطين، وجسده في حالة تخشب تام وكأنه قد زرع في هذا المكان.

في الليلة التي حدث فيها ما حدث لصابر، كان ميعاد الري، والجو صيفي؛ فأداروا مكن الري وجلسوا يتسامرون، كان هو أكثرهم ضحكاً، وقد كانوا يعرفون جمال صوته في القرآن، وطلبوا منه عدة مرات أن يطرب آذانهم ببعض ما سمع من المنشدين عن

أبي زيد الهلالي وعنتر بن شداد فكان يرفض خجلاً، رغم أنه في قرارة نفسه يعلم أنه يحفظها عن ظهر قلب وكان يُرددها على زوجته في خلوته معها بصوته الرخيم، ويطلب منها ألا تخبر أحداً خوفاً من غضب أبيه، في تلك الليلة القمر ساطع في وجه السماء، والماء المتدافع من ماكينة الري ينساب ليملأ القنوات التي تتصل بالأرض فتروي عطشها، وعيناه سارحتان في انعكاس القمر على صفحة الماء الجاري، ومع رشفات الشاي بدأ صابر يدندن بسيرة أبي زيد الهلالي سكت الجميع ينظر بعضهم إلى بعض وكأنها قيثارة من السماء قد هبطت على الأرض؛ فاهتزت من سحر صوتها.

قد خاب عبد لا يصلى على النبى

نبى عربى مالى شفيع سواه

نبى الهدى لولاه ما نعرف الهدى

قطع العدا طه بحد قناه

وياليل يا ليل يا ليل يا عينى على آآآه

أشكو لمن رفع السماء بلا عمد

إلهى تعالى مقتدر فى علاه

يا ليل يا ليل يا ليل يا عينى على آآآه

استغفر الله العظيم من الخطأ

إلهى تعالى واحد لا سواه

فلما فَرِغ الزناتي من الأشعار

و سَمِعت عُمومِ الرجال الهلايل

قال اللي يبيع العمرِ مش عار

إنما علي شيئ يحفظ مقامه

انا الزناتي انا جمل المحاميل

زعيم الغروب و الرجال يعرفوني

و عُمري عن الحدود انا ما حَاميل

و للمرجلة جدَموني

لازم انزل الحرب بكرة

طبول البلاوي حزينة

ولا خلي ولا بنت بِكرة

الا اما تِشلي حزينة

اه ياعين يا عين يا عين اه ياعين يا عين يا عين... الا اما تِشلي حزينة

انا الزناتي اسد الغروب

هاتوا الرِجال الهلايل

و حامت النسر و غَروب

وهصَّبح الحمل مايل

و بكرة لهايدور حربي

بني هلال اشعطت نياهم

يا يرحلوا مِن غربي

يا بالسيف اقطع رجاهم

و ضربت طبول المَيدان

و ركبت ولاد الأمارة

اقال الفتى يظهر يبان

حلت شعورها العذارا

و ركبت عرايب بني حَنِير

متقلَدة بالقضايب

و طِير النَيا فوق حَنِير

زادت نيران اللهايب

الولد جابته الخدادى

و طلعت ولاد الأمارة

ماشيين خلف الأمير

فاتحين باب الخسارة

جدامهم طوّى حسّى

و قال البلاد دى بلادى

بقى صحن الصبر وىّ سيف

ادموع تنزل علالى

خليفة هز المُبتر

اتخبَّلَت العَمايم

صرخ و قال الله اكبر

ادموع تنزل عمايم

دخل النجوع الأمير

قال نوم الليالي معاديني

زعل الزعيم الكَبير

أين المقاتل يجيني....

لما نصلي على النبي

كان الرجال الستة الذين معه في حالة سكر من هذا الصوت الساحر، تعجبوا كيف حرمهم كل تلك السنوات من هذه النعمة، فكأنما أوتي مزمار من مزامير داوود.

كانوا يُصلون على النبي كلّما ذكره، ويتمايلون على نغمات صوته قلوبهم تتقافز في نشوة وكأنّ الكون كله معهم في شدوهم، حتى انتهى صابر من السيرة الهلالية قاموا إليه فصافحوه واحتضنوه بشدة وهم يرجونه ألا يحرمهم من هذا الشدو الرائع.

يبتسم قائلاً: بإذن الله يا أحبابي أفعل إن تسنى لي ذلك، دعوني الآن فأنا أشعر بصقيع يحتل جسدي ووخزات في أذني ورأسي.

وجلس في مكانه يستدفئ بالنار المنبعثة من الحطب الذي أوقدوه لصنع الشاي، ينظرون إليه متعجبين فالجو رائع لا يوجد به إلا نسمات باردة ترطب جلودهم التي يحرقها حر الشمس نهاراً، وماهي إلا لحظات حتى غفى صابر فوضع عليه أحدهم جلبابه ليغطيه.

مضت ساعة تركوه فيها لتحويل مجرى الماء من حقل إلى آخر وفتح القنوات المسدودة ومتابعة الري مستخدمين كشافاً للإنارة.

وبينما الصمت يسود فقد انتهى الرى، وتم ايقاف الماكينات، انتبهوا إلى صرخة مكتومة؛ ليجروا باتجاه صابر الذي رفع الغطاء وهب واقفاً يرتعد وكلما همّ أحدهم بلمسه صرخ وكأنه قد ألقي عليه جمرة من نار.

هدأ قليلاً، ثم اعتذر لهم بقوله:

عذراً يا رفاقي فقد كان كابوساً شعرت بأن صوتاً يناديني ثم رأيت طيفاً لامرأة تقترب وماهي إلا لحظات وأحاطت بجسدي ثم ابتلعتني تماماً...

حاول أحدهم أن يطمئنه بأنّه ربما أصابه كابوس من النوم في الخلاء، وعرض عليه الآخرون أن يقوموا بإيصاله لبيته فما زال على الفجر ساعتين سيقضونها في إتمام عملهم، أما هو فيجب أن يخلد إلى الراحة.

ورغم إصرارهم على موقفهم إلا أنه لم يوافق أن يرافقه أحد؛ فقد أراد أن يمضي إلى البيت ماشياً على قدميه، وترك حماره معهم على أن يحضره أحدهم معه.

مضى صابر تتبعه نظراتهم حتى غاب عن أعينهم وقد أرجعوا ماحدث له أنه ربما أصابته ضربة شمس فقد كان يصطاد السمك طيلة النهار.

و مع تباشير الصباح الأولى ،عاد الخمسة في طريقهم لمنازلهم وأحدهم يجر معه حمار صابر، وعلى جانب أحد المصارف الضحلة التي يصرف فيها الفلاحون بقايا الماء الزائد عن حاجتهم لمح أحدهم فردة من حذاء صابر، فنادى رفاقه الذين تركوا ما بأيديهم من فؤوس ليجدوا صابر ملق على وجه في جزء من المصرف وحمدوا الله أن مستوى الماء كان قليلاً وإلا لغرق، حملوه وعادوا به إلى بيته في هيئة يرثى لها، لا يصدقون أن هذا هو صابر الذي كان منذ وقت قصير يملأ الدنيا بصدى صوته الذي سحر كل ما حوله.

طرقوا الباب فخرج أبوه وأخوته ما بين غاشية النوم والصدمة كانوا يتمايلون لولا صراخ زوجته التي نظر إليه الحاج سلمان نظرة جعلها تدخل إلى البيت ومعها مريم وأنها ثم حملوه إلى الداخل ،وأحضروا له الطبيب فقد كانت حالته غير مطمئنة.

وانتشرت سيرة ماحدث لصابر كالنار في الهشيم فهو الكريم ابن الكريم...

ومن يومها تبدّل حاله وكثرت الأقاويل حوله، ففي هذه البلاد مازالت تكثر الأقاويل عن النداهة والجنيات، صار حديث الناس ومادة سمرهم، هناك من قال:

أن النداهة وهي أنثى الجن، قد فتنت به فلما استعصى، أذهبت عقله.

وغيرهم قال: أنه كان يصطاد وقت الظهيرة وربما آذى أحد الجن وهو يشعل النار لشي السمك فجلبوا له الكثير من المشايخ والعرافين الذين أطلقوا البخور وحضروا

الأحجبة وقرأوا التعويذات دون جدوى فقد كان سر تلك الليلة غامض، وأخيراً أجمع العرافون أنه قد أصابه لبس من جنية قد احتلت جسده وخروجها يعني موته ،فيبدو أنه عشقته، فأهملها ولذلك ربطت حياته بها فلن تتركه حتى يخضع أو يموت فعاش بداء لا شفاء مرجو منه.

فقد ذهب عقله، فلم يعد يعرف أحد منهم ولا حتى أولاده وقد حاول كثيراً قتل نفسه لولا أنهم أنقذوه، صارت دموعه هي وسيلته فلم ينطق بكلمة منذ ما حدث له وكأن أحداً يمسك لسانه أو قد أصيب بالخرس من هول ما عانى.

لم يترك أبوه طبيباً إلا وعرضه عليه ولكن كل المحاولات باءت بالفشل؛ فعاش الشيخ سلمان وفي قلبه غصة لما نال ابنه من كرب لا يتجرعه وحده بل يتكبد مرارته أهله.

خيم الحزن على البيت الكبير، انطفأت روح الابتسامة فيه فهم في هم مقيم ما بين صرخات صابر في نوباته التي يحاول فيها الفرار من البيت، وقد كاد ينجح عندما فتح الباب لولا وجود رجال أشداء قد وضعهم والده خارج البيت لانطلق خارجاً دون أن يسيطروا عليه. وكان أصدقاء سمره من المزارعين يحاولون تحسس أخباره وزيارته من وقت لآخر، ولكنه لم يكن يتعرف عليهم فيخرجون دامعي العيون مكسوري القلب يدعون الله أن يشفيه ليعود إليهم، فقد صارت الحياة فارغة دونه حتى حفلات السمر لم تعد تقام وإن حدث لم يكن حديثهم إلا على رجل قل أن يأتي الزمان بمثله.

وذات غفلة من أهل البيت بينما الكل نيام، يتسلل صابر والليل يلملم أشلاءه لتنسج الشمس أول خيوطها بعيدا عن البيت يتسند جدران البيوت بكلتا يديه مسندا ظهره اليها شاخصا بصره للسماء، بيوت كثيرة تلامس كفيه المرتجفتين، وكأنه يستكشف عالمه وهو تائه في لجة عقله يبحث عن بر تلقيه إليه أو يهرب من شيء ما عرفه أحد أصحابه وخاف أن يقترب منه فلا يستطيع أن يسيطر عليه نظراً لتلك القوة الهائلة التي تسيطر عليه منذ أصابه ما أصابه.

فظلّ يتابعه عن بُعد حتى إذا استقر لمكانٍ ذهب لإعلام أهله وصابر في هذيانه البيوت مغلقة فقد عادوا من صلاة الفجر ويستعدون للخروج إلى حقولهم، يتنفس الهدوء حينا فيتباطأ فيسمع خلف الأبواب هسيسا، ما بين خوار وصياح ونقنقة وصوت صرير الأبواب تفتح فيمضي مهرولا.

شاهد هذا الرجل صابر يجري فنادى عليه باسمه فاختفي في لمح البصر؛ فذهب إلى أهله ليبلغهم بما جرى.

مازالت مريم في حمى ذكرياتها المؤلمة وهذا اليوم الذي طبع في عقلها عندما أضيئت أنوار البيت الكبير وزوجته تصرخ؛ فيخرج الجميع ومعهم صاحبه الذي رآه وكان يتابعه حتى هرب منه ظلوا يبحثون في كل مكان، وكأنّ الأرض ابتلعته، لا يوجد له أثر ولم يذهب إلى مكان بعيد ففي القرى المجاورة الكل أكدوا أنهم لم يروه.

لم ييأس الحاج سلمان من البحث عنه، فقد كلف الكثير من الرجال بتقفي أثره وكان هو يجري الكثير من الاتصالات لتساعدهم الشرطة في ذلك ولكن كل ذلك دون طائل فلم يعثروا له على أثر.

بعد أيام ثلاث خيم الحزن فيها على أهل البلدة كلهم وتغير وجه الحاج سلمان فقد كساه السواد حزنا على ابنه الذي لا يعرف ما هو مصيره.

قبل أن تغرب شمس اليوم الثالث، ينادي أحد الفلاحين العائدين إلى بيوتهم وهو يمضى بجوار ضفة النيل قائلاً:

يا أهل البلد غريق غريييييييق

يتجمع الناس جثة طافية قد مالت إلى حافة

النيل وجهها في الماء لا أحد يتكلم، الكل واجمون، كل يحدث نفسه ودموع تتقاطر من العيون يخافون أن يتحقق ظنهم.

يحضر الحاج سلمان وأولاده الثلاثة ورغم أن الجثة لا تظهر ملامحها مجرد جثة منتفخة لرجل ولكن وجه السيد سلمان قد قال الكثير...

تكالب أولاده وهم مفطوري القلب دامعي العين لإخراج الجثة التي اتضح أنها لصابر يرتدي جلبابه الرمادي الذي اختفى وهو يرتديه، كان صابر الذي غرق وهو ممسك بغصن شجرة قابضاً عليه حتى بعد وفاته، يبدو أنه من تلك الشجرة الجاثية على أطراف النهر ترسل فروعها لتغتسل فيه، قد تمسك صابر بأحدها وكأنه أراد أن يكون طوق نجاته، وتبينت الشرطة وجود أثار خنق في عنقه، وسحجات على ساقه؛ فربما كان أحد يحاول سحبه للأسفل في محاولة إغراقه.

تحقيقاتٌ كثيرة لم تسفر عن شيء ومما كزاد الأمر غموضاً هذه الآثار التي على جسده والتي اتضح أنها أثاراً ليست آدمية وهنا تأكد الجميع من مقولة العارفين، وأنّ ما حدث لصابر ما هو إلا من فعل العالم السفلي الذي قد يكون صابر قد خرق أحد قوانينه أو اعتدى بغير قصد على أحدالجن فانتقم منه.

اغتصب الحزن قلوب أهله وأصحابه وخاصة أبيه الذي شعر بدوار شديد بعد أن أخرجوا ابنه جثة هامدة لم تقو قدماه على حمله ثم سقط مغشياً عليه.

دفن صابر في صباح اليوم التالي ولم يشيعه أباه فقد كان في عالم آخر، الأطباء يتناوبون عليه دون نتيجة ترجى، وقرروا أنه أصيب بجلطة ولا قدرة لهم أن ينقلوه المشفى لخطورة حالته، ولم يكد النهار أن ينقضي حتى دوى الصراخ مرة أخرى فقد لحق الحاج سلمان بابن روحه وكأن روحاهما لم تستطع أن تفترق فدفن معه في قبر واحد.

ومنذ تلك اللحظة أطلت الحياة بوجهها العبوس على بيت الحاج سلمان تبدل وجهها وكأنها استبدلت الأم بزوجة الأب، السفينة التي كانت تحملهم تحطمت وألقي بالجميع في بحر متلاطم فقد ضاع خير الدنيا بموت عقل العائلة وروحها وذروة سنامها.

حزنٌ قد عانق قلب الجميع وخاصة بعد أن تولى سالم زمام الأمور خلفا لأبيه وشتان بين العقل والجنون الحكمة والطيش لم يحسب الحاج سلمان حساب ذلك، كان يعد لكل شئ عدته ولكن الموت فاجأه فرغم محاولاته المضنية تعديل سلوك سالم إلا أنه ظل على ماهو عليه حتى آيس من اصلاحه، فقرر أن يكون صابر خليفته ولكن نحن نتمنى والله يفعل ما يريد.

لم يكد يمضي يومان حتى جلس سالم مكان أبيه، كان الجميع من أهل وأغراب متخوفين من سالم فكلهم يعرفون طباعه جيداً، ويعلمون أيضا كم سيعانون معه، أما أهل البيت فقد أخذهم الحزن وواراهم بعيدا فهاهي مريم لاترى إلا دامعة العين شاردة فقد صافحت عينيها الموت لأول مرة فاهتزت أركان قلبها، وصارت الابتسامة شحيحة، قد يصيبك الكبر في لحظة عندما تفقد روحك أحد سكانها فتترنح في الطرقات تبحث عنه وتنادي ولكن أنّى له أن يعود إذا كان صاحب الغياب هو الموت، ومما زاد من قسوة فقدهم على القلوب زوجة صابر التي التحفت بالسواد وقبعت في حجرتها لا تفارقها مهما حاولوا فقد أصاب الحزن روحها في مقتل وكأن صابر كان شريان الحياة لها، وقد قطع بموته فصارت أقرب للموت عن حياة بين أطلال، تتوسد ملابسه وتتحضن وسادته التي مازالت رائحته التي تجلب طيفه فيها ولا تفارقها إلا حين تحتضن ولديها لدقائق ثم يعودون إلى حضن عمتهم وجدتهم فسبحان من برحمته يظل عباده.

فقد كان الحفيدان تسرية لقلب الأهل المكلومين.

ارتبطت مريم بهما جداً بعد وفاة الأب ومرض الأم، كانت ترى فيهما ظل صابر، تغرورق عيناها بالدموع وهما يأتيان إليهاجريا فاتحي ذراعيهما لينهلا من حنانها وأحدهم يحمل نفس عين أبيه والآخر ابتسامه جده وكأن الله وضع روحيهما في هذين الطفلين .

هُدمت أركان عائلتهم وصار سالم هو كبيرها وكان هذا وحده كفيلا بضياع كل شئ فقد كان أخواه حسن وعاطف مازالا صغيرين وبعيدين عن التجارة والأرض.

استطاع سالم أن يملك زمامهما ويسيطر عليهما وكان لابد لهذه الأسرة من ربان يمسك دفة سفينتها، ومريم في هذا الوقت في المرحلة الإعدادية دارت بهم الحياة وتوالت السنون ولم يعد شيئاً كما كان فقد كل شيء بريقه حزناً على صابر وأبيه الحاج سلمان.

حاولت الأم أن تتماسك ليظل البيت قوياً، ولكن سالم كان كالريح العاصفة التي تطيح بكل شيء.

انتقل المجلس إلى بيت العمدة الذي تمنى أن يكون كبيرا للبلدة فهو الأخ الكبير والعمدة بعد أبيه، ولكن القلوب والعقول كان تترك مجلسه الذي فرشه وأسسه ليكون قبلة للناس، ولكنه كان فارغاً لايقصده سوى أصحاب المصالح والفاسدون، وكان العمدة يسيطر على أفكار سالم حتى في حياة أبيه، وظل سالم قائماً على الأرض وبسبب غلظته لم يكن المزارعون يطيقونه، فكثيراً ما مرّ عليهم بحصانه الأشهب؛

ليحثهم على العمل يصرخ في هذا ويطرد ذاك فيتذكرون صابر وكيف كانت الحياة وهو بين ظهرانيهم فتترقرق دمعة في أعينهم، وهم يتخيلون طيفه بإبتسامته التي لا تنسى ورحمته بهم وقربه منهم فيترحمون عليه وعلى أبيه.

القسوة دائماً تكسر وتضعف الهمة، ولذلك ضعف محصول الأرض وكان سالم عندما يناقشه أحد أخوته أو أمه في ذلك الأمر يصرخ ويهدد بترك كل شيء ويمضي خارجاً.

فكانت الأم لا تملك سوى البكاء على زوجها الذي كان نعم الزوج والصاحب ونعم الرجل في حديثه وعقله وطيب عشرته، وابنها الذي خسرت معه بهجة كانت تغمرها بمجرد أن يدخل عليها.

لم تمح السنون ذكراهم أبداً بل كانت روحاهما لا تفارق أهل البيت.

الفصل الثاني

ليس الحبُّ صدفةً أو اختيار، وإنما هو تلاقي أرواح قد كتب الله لها اللقاء!

الخروج من الشرنقة

ظلّت تلك الشجرة التي تعلّق بفروعها صابر ومات ويداه مُطبقة على بعض أوراقها؛ شاهدة على بقاء ذكراه ما إن تلوح فروعها من بعيد حتى تكتنف الرائي حسرةً وتنهيدة يزفرها ولسان يلهج بالدعاء له بالرحمة وعد مناقبه، فقد كان له في كل بيت ذكرى تشهد له، وقد أطلق على الشجرة منذ ذلك الحين اسم (شجرة صابر) وصارت أثراً من آثار القرية، بل إن بعض النساء والرجال اتخذوها مزارا لهم كلما مرت بهم ضائقة، وقد تواترت الحكايات بأنّ روح صابر مازالت تسكن الشجرة، وأنه يسمع شكواهم فيعودون من هناك وقد شعروا بالراحة والسكينة، وقد ذهب بعضهم إلى أنه ذات يومٍ بينما كان يبكي بشدة من أزمة ألمّت به شعر بأن يدا باردة قد لمست وجهه وكأنها يدٌ مبللة بالماء وعندما فتح عينيه، صرخ فرحاً وهو يقول:

الله حي، صابر حي...

ومن يومها وحكايات كثيرة حول تلك الشجرة، وهذا الإنسان الذي ارتبطت به تلك القلوب النقية التي تحتاج في هذا الواقع الثلم إلى من يشعر بها ويذكرها من وقت للآخر أنه هناك قلوب مازالت تكترث لأمرها وأياد ٍمازالت تفعل الخير بلا مقابل.

مرّت السنون وزادت الشجرة كثافة؛ تعددت فروعها وعظم جذعها وأغصانها المتدلية

تلامس مع حركة النسيم صفحة الماء، كيد طفل تعبث في انعكاس الشمس على وجهه وكأنها تحاول أن تمسك بخيوط النور الغارقة في ماء النهر؛ لتظلّ شاهدةً على أن الجسد يفنى وتبقى الذكرى حية لا تموت.

رحل صابر فاضطرب كل شيء في البيت الكبير وماذا بعد أن يأخذ أبيه معه؟ وهاهي أمه التي قصم ظهرها بموت رفيق عمرها، وخلع قلبها لموت فلذته قد نعيش في نعمة دون أن ندرك ويأتي فقدانها كضربة قاسية تقتطعها من قلبنا. كان الحاج سلمان مكانة عظمى في قلب وحياة أم سالم، لم تكن تدرك ماهو الحب فلم تسمع الكلمة وعندما سمعتها لم تدرك معناها، إلا عندما مات زوجها لم يكن صراخها عليه بقدر ما هو نزيف لقلبها على هذا الشخص الذي كان يملؤه

ولم يكفها الحزن ودموعها التي لا تجف عليه وعلى فلذة قلبها، تلك الروح التي كانت تجلب السلام والأمن لهذا البيت، تسرح بنظرها وتتذكر عندما كان صابر يقبل يدها و رأسها، كانت روحها تهدأ، تشعر بسلام داخلى وكأنها فرغت من الدنيا كلها بمتاعبها وأفكارها وغسل قلبها بماء نقيا مباركاً، فتملأ عينيها منه وتبتسم ابتسامة رضا؛ فيدعو له قلبها قبل لسانها.

لم يمر كثيراً على الأم إلا وقد أصيب قلبها بضرر بالغ، وصار الأطباء في زيارة شبه يومية لها، إلا أن استقرت حالتها على ضعف في عضلة القلب ستلازمها لبقية عمرها.

وشيئاً فشيئاً بدأت الحياة تهدأ، فالحياة قاسية لا تأبه لأحد بل تبتلع أجساد أحبابنا وتمضي دون أن يتحرك لها جفن.

سيطر سالم على كل شيء فقد ذهب من كان يمسك لجامه، ولم يبق أمامه من ينازعه في السلطة التي تركها الحاج سلمان، فأخواه مازالا صغيرين على تحمل المسئولية.

حاولت الأم أن تتماسك لتشد من عضد الأخوين الآخرين؛ عاطف الذي تلقّى تعليماً متوسطاً، فهو مثقف البيت هكذا يلقبونه، كثيرا ماكان يجلس بجوار أبيه قبل وفاته ليقرأ له أخبار البلد وما يدور فيها. يتمتع بثقافة عالية، ولذلك كان كثيرا ما يهتم بأحوال البلاد والعباد، كان مع الشباب الذين ارتأوا أن البلد تعيش حالة فساد في ظل حكم حسني مبارك فانضم إلى شباب حركة 6 أبريل في مظاهراتهم لخلع مبارك

وشارك في ثورة 25 يناير لتغيير نظام الحكم، وكم كانت فرحته غامرة بزوال حكم مبارك فأطلق النار ابتهاجاً وأقام الولائم رغم اعتراض سالم على ذلك ولكنه خاف من غضبة أمه التي كثيرا ما تعنفه في غلظته مع أخوته وسوء إدارته لأمور الأسرة.

عاصر عاطف عهد الأخوان رغم عدم انتمائه لفكرهم ولكنه أراد الإصلاح وحين قلبت المركب وتم خلع مرسى ارتأى أن ذلك ضد أهداف الثورة فشارك في أحداث رابعة وظل في اعتصامه معهم، ولولا أخيه سالم الذي استطاع بمساعدة بعض الرجال اختطافه قبل أن يتم دك الإعتصام لكان شهيدا، وخاصة أن حماسه هذا قد أفقده الرؤية بإحدى عينيه في أحداث 30 يونيو، ورغم ذلك مازال متمسكاً بمبادئه مدافعاً عنها.

دائما يقول:

الإنسان عدو ما يجهل وخاصة نحن العرب، قد نستكين لظلم أحدهم ونرضى بالذل خوفاً من أن تعامل مع شخص جديد، ويردد المثل القائل: (اللي نعرفه أحسن من اللي منعرفوش) نضع رؤوسنا في الرمال ونرضى أن نعيش في كهف مظلم خوفا مما يجلبه ضوء الشمس، حماه والده كثيراً من الوقوع تحت طائلة القانون، وذلك لأفكاره الثورية التي كان لسانه ينطق بها في كل مكان على المقاهي وفي الطرقات وحتى في محل عمله، ولولا مكانة والده وأهله التي مازالت لها شأن في كل مكان يذهب إليه لعاش عمره حبيساً لقضبان السجن.

آثر عاطف أن يبتعد عن سلطة سالم وتجبره بعد موت أبيه؛ فترك له التصرف في كل شئ بعد أن حاول مساعدته ،في إدارة الأرض ولكنه سار على نفس نهج صابر فقد كان يشبهه كثيراً حنوناً يراعي الضعيف والمحتاج، وذلك لم يرق لسالم فثار عليه وكاد يحدث بينهما مالا يُحمد عقباه ففي لحظة كاد الشيطان أن يجعله يقتل أخاه. أمسك

سالم برقبته محاولاً ضربه؛ فارتعشت يداه وخرج مسرعاً تتبعه نظرات أمه الملتاعة وأخيه الذي تنفس أخيراً بعد أن كاد عنقه أن يُكسر بيد أخيه، وفي المساء عاد سالم ليقص لأمه شيئاً غريباً انتابه وهو يمسك بعنق عاطف فقد أكّد لها أنه قد سمع صوت أبيه، ولولا ذلك لقضى على عاطف بعد أن دفعه ورفع صوته عليه في وجود العمال.

بعدها أصر عاطف أن يدعه يتصرف في كل شيء خوفاً على أمه وقلبها الضعيف؛ فعمل بالجمعية الزراعية بالبلدة التي كان والده مساهماً فيها بنسبة كبيرة.

وفي بيت أبيه تزوج من ابنة خالته لتكون قريبة من والدته، وتقوم بمساعدة مريم على تلبية طلباتها، أرادتها لها أمه لأدبها الجم وجمالها الهادئ، ولكنها انتظرت حتى تعرف من يريد أن يتزوج خاصة أن ليس في العائلة من بنات أعمام في سنه، فقد تزوجن جميعاً ومن بقي منهن صغيرات، ويأتي القدر بما يجلب لقلبها السرور ففي أحد زياراته لبلدتهم المجاورة لهم رآها فتمنّاها زوجة، وعندما أخبر أمه فرحت فرحاً شديداً، فهذا ما تمنته فقد كانت البنت يتيمة ماتت أمها منذ سنوات، وهي فرصة لتعتني بها براً بأختها.

لم تكد أمه تطرح الفكرة على مريم ومن في البيت حتى قوبلت باستحسان منهم، وفي خلال شهور تم الزواج وتكفلت الأم بكل شيء لضيق ذات يد أبيها.

كان لمريم شبيهاً من أخوتها كما كان لصابر شبيه ولم يكن هذا الشبيه بنتاً بل كان أخوها حسن الذي يكبرها بثلاثة أعوام، يشرق محياها حين يذكر اسمه؛ فقد كان أقربهم إليها سنا وعقلاً، يدرس حسن في كلية الزراعة وبينهما تناغم قلّ أن يحدث بين أخ وأخت، أختاً وصديقة دائماً ما يدخل إلى حجرتها، ليداعبها أو يهديها قصة أو كتاب؛ فهو يعرف ما يجلب السعادة لروحها ويجعلها تطير فرحاً؛ فهي حالمة تعشق قراءة القصص والأشعار، وكثيراً ما كان يجلس معها في ركن الحديقة الذي كانت تحب

أن تجلس فيه حيث الهواء ورائحة الزهور والفاكهة وهديل الحمام في البرج الذي يعلو سطح البيت، فتراقب الحمام بألوانه المختلفة وهو يطفق بأحنحته؛ فتغمض عينيها وتتمنى أن ينبت لها أجنحة لتشاركه السماء باتساعها وجمالها.

وفي أحايين كثيرة يدخل عليها وهي سارحة في ملكوتها الخاص؛ فيبادرها قائلاً:

_ ماذا قرأت اليوم يا مريمة؟

فتنتفض ضاحكة، وهي تقول:

ألم أقل لك أن تصدر صوتاً قبل أن تدخل حتى لا تفزعني وتخرجني من عالمي الخاص.

فيردّ وهو يمسك أذنها:

قولي لي ماذا كنت تقرئين؟

آه لو أعرف أين يأخذك هذا الرأس الصغير والعقل الجميل بعيداً عنا.

_قرأت عن مجنون ليلي وكيف كان يهيم عشقاً بها حتى صار حديث الناس ومات منبوذاً محروما منها، ثم تسرح بعينيها بعيداً حيث يتلألأ القمر من زجاج الشباك في ليلة بدا القمر فيها هلالاً وتتنهد قائلة:

هل هناك حب حقاً يا حسن، أهناك شعور قد يجعل الإنسان يفقد عقله من أجل آخر؟

_ لو كنت صعيدياً حقاً لقتلتك لما تقولين، ولكنك أختي الحبيبة، وأعلم أنك رقيقة حالمة فاعلمي أن الواقع غير ذلك، انزلي من سماء أحلامك، فأنت تعرفين أين نعيش..

وهذا الحكم لا يشملك وحدك بل يشملنا نحن الرجال أيضاً، فلا تتوهمي أنّ الزواج هنا ظلم للإناث فقط، فنحن أيضاً نرغم على الزواج من بنات أعمامنا.

وبينما هما يتناقشان، وقد كست سحابة حزن وجه مريم البريء بعد سماع ما قاله حسن دخلت الأم فجأة؛ فقام حسن مسرعاً يُقبّل يديها ويحيطها بذراعه بحبٍّ، ويجلسها على الأريكة فتقترب مريم منها، تنحني على كتفها تقبله وتضع رأسها عليه؛ فتمد الأم أناملها لتتحسس وجنتيها وتربت على كتفها.

تبادرهم الأم قائلة: قولا لي ماذا تفعلان؟

فتتململ مريم لتقول كنا نتحدث عن ....

ليلكزها حسن مازحاً كنت أطمئن على مريم، وهل تُحصّل دروسها جيداً أم لا...

ثم يمسك أحد الكتب ويقول:

_ما أروعك يا مريم في استذكار دروسك، هذه هي أختي التي أفخر بها.

_ أشكرك يا أخي لتشجيعك، دمت لي.

ترمقهم الأم بنظرة تعجب وتزم شفتيها فلا تخفى عليها هذه المسرحية بين الشقيين، فتدور بعينيها بينهما، تحاول أن تحثهم على الابتسام بمراوغتها لهم، بالنظر في عينيهم مباشرة ثم تبتسم قائلة:

أتخدعاني، أعلم أن ما بينكما ليس دراسة، بل قصصاً أتظنناني جاهلة، ياملاعين، أنسيتما أنني وصلت للإعدادية، وكنت شغوفة كمريم بالقصص، ولكني بدأت قصتي مع أبيكما، ورأيت جمالها في أعينكما يا قرتا عيني...

يتابعنها بشغف وحب، فهي حضنهما الدافئ، لا يتعاملان معها كأم، ولكن كقطعة من القلب، وبعد أن انتهت من حديثها، جريا اليها ليقبلا يديها ويغرسان رأسيهما فوق ضلوعها الحانية.

الأم هي الأم جنة على الأرض ،هكذا كانت أم سالم، ففي الصعيد لا تنادى الأم باسمها

ومع الوقت ينسى وتُنادى باسم أكبر أولادها الذكور، تعيش أم سالم كغالبية أمهات الصعيد في كنف زوجها وعائلها لاتخرج إلا في أضيق الحدود وفي بيتها لايراها إلا زوجها ومحارمها، وهي رغم دبيب الشيب الذي سرى في مفرقها، والسنون التي افترستها ومصيبتها في زوجها وابنها التي أحنت عمود ظهرها، ما يزال باق بين تجاعيدها تاريخ لجمالٍ لم يندثر.

كانت بضة الوجه ميسان أحبها الأب كثيراً، وكثيراً ما رأت مريم نظرات أبيها التي تحمل حباً وتقديراً، ورغم زواج أعمامها بأخريات إلا أنه أبى أن يستبدلها بأخرى، أو يدخل على قلبها الحزن.

تشبهها مريم كثيراً، جميلة الوجه، تملك بشرةً خمريةً يشوبها حمرة، وخصر نحيل يغطيه جلباب واسع، فلم يكن مسموح أن يظهر من جسدها شيء.

فقد كان أبوها غيوراً وكذلك أخوتها، تملك وجها مستديراً كالبدر، يتدلّى من تحت غطاء الرأس الذي ترتديه على رأسها خصلة من شعر فاحم،

يبدأ نهارها بالخروج كل صباح متجهة إلى مدرستها الثانوية التي تبعد عن المنزل قليلاً،

تطوي الأرض طياً، مفعمة بالحياة، تفتح صدرها لهواء الصباح الندي، تمتلئ به فتشعر بأنها تُمنح حياة كل يوم، فتتهادى كغزال، تحتضن كتبها، لا ترفع رأسها إلا لتعبر الطريق أو لتتبين ما أمامها.

هي اليوم تبدو واجمة حزينة، فصديقتها ورفيقة طريقها سناء مريضة، وستضطر للذهاب إلى المدرسة وحيدة.

اتخذت طريقاً مختصراً من بين الحقول بدلاً من الطريق الرئيسي.

تتهادى خفيفة رشيقة تقفز وهى تسير كغزال، تعشقه كل عين تقع عليه؛ فالمحبة يوزعها الله سبحانه على عباده، فبقدر جمال روحك ورقيك يحبك الناس، يحبيها الناس الذين تصادفهم في طريقها وهم يتوجهون إلي حقولهم مع بهائمهم، أوالذين يمارسون الري أو الزراعة وترد عليهم السلام، فيلقونها ببشرٍ وترحاب وابتسامة حب ورضا تكسوا وجوههم.

ليس فقط لأنها ابنة الحاج سلمان الذي كان الجميع يحبه ويخشاه ، بل لأن مريم كانت اجتماعية، تحب الناس ورغم أنها لم يكن مسموحا لها بالإختلاط رغم أن القرية جميعهم من أهلها إلا أن مجرد مرورها وإلقاء التحية كافيا بأن تغزو القلوب ويكون لها مكان بل وذكر لحسنها وأدبها وتواضعها في كل بيت.

لم تكن تمشي الهوينى بل تهرول في سيرها، و كثيرا ما نبهتها أمها، بأن تسير على مهل. كانت تتذكر قول أمها (يا بت امشي عدل بلاش تنطى وانتى ماشية كده زى أبو فصادة)

فكانت تضحك وتقفز كالقطة الشقية تداعب أمها فترمقها وهي تحاول أن تخفي إبتسامتها، تحتضنها مريم وتقبل يديها ورأسها فتكتفي الأم من الكلام الذي لا طائل منه فهي تعلم أن روح ابنتها وثابة تحملها رغما عنها.

تعرفها الأم جيداً فعلاقتهما متبادلة، كل منهما أم وابنة للأخرى...

ما زالت مريم تمضي فى طريقها، تُقدّم قدماً وتُؤخّر أخرى ليس خوفاً فقد اعتادت أن تواجه أي أمر، هكذا علّمها أبوها ولكن حزناً فلم يمر يوم من قبل دون أن تكون بصحبة سناء، وبعد دقائق تفتح رئتيها لنسيم الصّباح الندي؛ ليملأ صدرها تتناسى وحدتها، وتتناغم مع هذا الجو الساحر وتلك النسمات البكر؛ فهي جزء من هذا التكوين الإلهي، تلك المزروعات الخضراء على اختلاف ألوان ثمارها وأشكالها، تتتبّعها بعينيها على جانبي الطريق، قطعٌ متجاورات من الأرض، كل قطعة فيها نوع من

النبات مختلف ما بين الخضراوات، الحبوب، الأشجار، والعصافير، وهي تخرج من أعشاشها وصوت شقشقتها تحمله النسمات.

تبتسم لرؤية أرجل أبو قردان الطويلة وهي تغوص في الأرض التي رويت بالماء بلونه الأبيض، يلتقط غذاءه ويجوب الحقول.

تبدو عيناها وكأنّها كاميرا ترصد، وتتجول ما بين الزروع والأشجار، تداعب قطرات الندى وهي تتراقص على أوراق الشجر وتغمر النباتات برشفة ماء تروي ظمأ ليلٍ قد طال عليهم، فتغمر النشوة روحها.

عيناها تراقبان السماء وحركة السحاب وتغازل بعينيها شعاع الشمس الذي يخجل منها فيتوارى، فتدندن بصوت خفيض، أغنية صباح:

أمشي في السكة أشوف نفسي...

كده حلوة وروحي عجباني...

وأتمني أأقابله ولو صدفة...

ويشوف تسريحتي وفستاني...

تتمنّى أن تفتح ذراعيها لتطير وقد امتلأت رئتيها بهواء الصباح المنعش، ولكن أنّى لها فلا تستطيع أن تصدر إلا هسيساً لا يسمعه أحد وإلا نالت غضب أبيها ومعه بلدة كاملة.

فرغت من جولتها وبدت كوردة أنعشها الندى ولثم خدها فتفتحت له بابتسامة مشرقة كشمس الصباح.

قريباً من المدرسة تعثّرت، تناثرت كتبها، همّت بلملمتها وهى تتلفّت خشية أن يراها أحد، وبينما ترفع رأسها، انكسر بصرها جانباً، توقفت أنفاسها ومحجرا عينيها؛ لتصطدم بشاب، يجلس تحت شجرة التوت!

ظلّ نظره مُعلّق بها، وابتسامة تكسو محياه. عيناه تنطقان بما في نفسه، لم يبد من هيئته أنه من أهل البلدة، فالكلُّ هنا معروفون، همّ بالتوجه إليها، رمقته بتعجب، ونفضت ما علق بملابسها من تراب وسرعان ما ضمّت حاجياتها وانطلقت تهرب من نظراته التى أدركت بإحساسها أنها تتبعها، لم تفارقها نظرته، تساءلت في نفسها من يكون هذا الغريب ؟! أهو إنس أم جان ؟!

شعور غريب انتابها وكأنّه سكنها، صورته لم تفارق عينيها، نظراته إليها، جلّ تفاصيله وُشمت فى عينيها، لم يحدث أن حدث هذا معها من قبل.

هالة غريبة اخترقت قلبها وروحها لتسكنه.

شعرت ولأول مرة بأنّ لها قلب ينبض، فلم تشعر أبداً بنبضاته من قبل، تعجبت من حالها، ماذا دهاها ؟! وأي شيء قد أصاب هذا القلب الذي لا تهدأ دقاته ولا تستقر ؟!

وصلت المدرسة... شاردة، فلم يكف عقلها عن التفكير فيمن رأته..

من أين أتى ؟ وماذا كان يفعل ؟

تتعجب زميلاتها من شرودها يسألنها:

هل أنت مريضة ؟ أم أن هذا بسبب غياب سناء ؟

فما زادت على أن أومأت برأسها علامة الإيجاب.

مرّ وقت الدراسة، عادت من نفس الطريق تُحدّث نفسها:

لقد كنت أحلم، يبدو أننى أصبت بضربة شمس فرغم أننى خرجت مبكراً إلا أن هذا اليوم، كان مختلفاً، الشمس حامية من بداية النهار.

حاولت أن تقنع نفسها أن ما رأته هلاوس أو تخيلات، وأن ما رأته لم يكن سوى حلم أو شبح جرّاء ما تقرأه من قصص قد أتلفت عقلها كما كانت تقول أمها...

أصرّت أن تسرع الخطى؛ لتمر من نفس الطريق، فقد تكون حتى شجرة التوت نفسها ليس لها وجود، لكن هذا لا يمنع أنها تمنت في قرارة نفسها لو كان حقيقة.

فهي سعيدة بهذه الثورة التي اجتاحتها فرغم روعة حياتها إلا أنها كانت كالماء الراكد لا جديد يطرأ على حياتها إلا فيما تقرأ، والآن يعبث بها إحساس مختلف لأول مرة ما بين تساؤل وترقب وأمل خليط من كل ذلك...

بدت الشجرة من بعيد تتثاقل خطواتها وكأنها مقيدة بسلاسل، تؤخر قدميها، مابين الرغبة والرهبة، ترتسم من بعيد ملامح الشاب الذى رأته فى الصباح يتطلع إلى الطريق حيث تسير، تتقدم وكأنها مسحورة، حتى تصير بمحاذاته. تعلو وجهه ابتسامة تشع من بين ثناياه أضواء من نور الشمس.

إذن هو حقيقة... هكذا حدثت نفسها.

ولكن غريب أمره، هل كان ينتظرها؟ ومن هو؟

لم تتوقف لحظة ولم تلتفت فقد رأته بإحساسها وها هي ضربات قلبها تطرق كالطبول، تركت الشجرة خلفها، أطرقت ومضت مسرعة حتى وصلت إلى البيت، فى كل خطوة تتمنى أن تعود للخلف أن تنقطع بها السبل، وأن تؤدي كل الطرق إليه، أرادت أن تعرف عنه أكثر ومن هو وما سبب وجوده فى هذا المكان وماذا فعل فيها؟ هل ألقى عليها تعويذة؟ أم سحر؟! ولكن لابد أن تُحكّم عقلها، فهو عابر سبيل وسيمضي لحاله، فلا داعي لكل هذه الجلبة وهذه التساؤلات.

طرقت الباب ففتحه الحارس، ومضت تجري حتى دخلت إلى أمها لترتمي في أحضانها، وتطبع قبلة على جبينها فتأخذها أمها بين ذراعيها، تحدثها عن يومها وما فعلت فيه كما اعتادت كل يوم، ثم تدخل غرفتها لتترك لعقلها العنان ليفكر فيم حاولت إخفاؤه عن أمها...

شعور غريب يخالجها فقد شعرت مريم أن شيئاً فيها تغير، ولكن هذا كله وهمٌ! أين العقل في أن نرى شخصاً لا نعرفه، فيصيبنا تغيراً في كيمياء عقلنا بل وفي ضخ الدم في قلوبنا.

لم تطق مريم هذا الضجيج في قلبها وعقلها فخرجت بعد أن بدلت ثيابها، إلى حيث مكانها المفضل في حديقة منزلهم تراقب الحمام، هي

تعشق كثيراً مراقبة أسرابه في رحلة خروجها صباحاً وإيابها ليلاً، وتتذكّر حديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- الذي درسته في المدرسة عندما يقول:

(لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطانا) فتسبح الله خالق هذا الكون ومسيره بمشيئته وخالق هذا الجمال الذي يحيط بها وتعشق وجودها بين أركانه.

تلقي إليهم الحب فيتجمعون يحفونها ويطفقون بأجنحتهم في لوحة جميلة تشعرها بمدى السعادة حينما تعطى، فالعطاء نعمة لمن يقدر قيمته، لا فرق فيه بين إنسان وحيوان، فمن يتبع فلسفة العطاء يسير باسطاً يده للجميع، وأولى شئ بالمنح هو الحب، هو جواز مرور لقلوب وأرواح ومخلوقات الله جميعاً، وحتى الذي لا ينطق أو نعرف لغته سوف يشهد على فعل الإنسان أمام الله.

يأخذها جمال الورد فتميل عليه بخدها الذي يباهي الورد بلونه، وكأنها تخاطبه قائلة: أنا منك أيها الورد، روحي من نبعك وأنفاسي من عبقك وها هو لون خدودي

أليس أجمل من لونك ؟

تدلف إلى البيت، ضخم و رائع في تصميمه يليق ببيت كبير هذا البلد الحاج سلمان.

تدخل على أمها وهي تقوم بالإشراف على إعداد الغداء، تُقبل خدّها وتنصرف فتتبعها أمها حيث يجلسان في بهو البيت، تبتسم أمها قائلة:

مابك حبيبتي ؟! وما سر هذه السعادة التي تنير وجهك ؟!

تتسع ابتسامة مريم وترد:

_لا شيء أمي، ولكني أشعر بفرحة تغمرني.

_هل أخذت درجات مرتفعة في مادة ما؟ أم أشاد بك أستاذ اللغة العربية كما يفعل دائماً، فأنت متحدثة مفوهة يا مريمة.

_ كلُّ هذا قد حدث يا أمي فقد ألقيت قصيدة شعرية اليوم، وقد صفّق لي الجميع وكنت سعيدة جداً، فلا يتوانى أستاذ حمدي عن دعمي وتشجيعي فهو يعلم ولعي بالقراءة والشعر.

احتضنت أمها وكأنما تريد أن يهدأ هذا القلب ويستكين، ثم رفعت رأسها من فوق كتف أمها ونظرت لها وهي تضرب الأرض بقدميها، كأنها ترقص ثم تدفع أمها برفق لتجلس على أريكة مجاورة، وتقول لها وهي تطير سعادة:

سأقرؤها عليك يا أمي فهلا تنصتين؟ أومأت الأم بالإيجاب..

وابتسامة بشر تغطي وجهها وقالت بلهفة:

نعم أريد أن أسمع تغريدك يا عصفورتي

وقفت أمامها مشرئبة العنق، باسمة الوجه وبدأت تلقي عليها الكلمات التي ألقتها أمام زميلاتها في المدرسة

فقالت: ألقي عليكن زميلاتي اليوم بعض أبيات من الشعر للشاعر الذي قتله شعره إنه العظيم أبو الطيب المتنبي وأشهر بيت نعرفه جميعا وقد قيل أنه البيت الذي قتل صاحبه إذ يقول :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم.

أبيات اليوم بعيدة عن السيوف والرماح، بحروف فخمة ومشاعر جياشة وكلمات تقطر عذوبة يكتب المتنبي عن الحب فاستمعوا وأنصتوا لهذه السيمفونية البديعة من العزف بالكلمات :

أرقٌ على أرقٍ و مثلي يأرق

و جوىً يزيد و عبرة تترقرق

جُهدُ الصبابة أن تكون كما أرى

عين مُسَهدَةٌ و قلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر

إلا انثنيت و لي فؤاد شيق

جربت من نار الهوى ما تنطفي

نار الغَضَى و تَكِلُّ عما تحرق

و عذلت أهل العشق حتى ذقته

فعجبتُ كيف يموت من لايعشق

احتضنتها وهي تقول ما أرق وأعذب صوتك يا عصفورة قلبي.

ثم نظرت الأم اليها بحنو واستطردت قائلة : هيا نادي أخوتك فقد حان موعد تناول الغداء،، ربتت مريم على كتف أمها بحنو وهرولت

لتنادي حسن وعاطف ،فها هي تسمع أقدام سالم هو وزوجته وأولاده فمنذ وفاة أبيه عاد للأكل معهم ولكن معيشته في بيته الملحق بالبيت الكبير .

اجتمعت العائلة على مائدة الطعام ،على رأس المائدة كرسي الحاج سلمان تعلوه صورته بإطارها الكبير المحلى بماء الذهب فرغم مرور السنين لم يجرؤ أحد حتى سالم بجبروته أن يجلس عليه ،وبجواره كرسي آخر فارغ كان لصابر وأيضاً له صورة كبيرة بابتسامته التي لم تكن تفارق وجهه.

ما إن يجتمعوا على المائدة حتى يأخذهم الحنين إلى أيام كان يشاركهم الحياة ،ولكن شيء من رضا يكتنفهم لشعورهم أن أرواحهم مازالت موجودة معهم، يجلس سالم وزوجته وأولاده وحسن وزوجته وكذلك زوجة صابر وولديها، وتجلس مريم بجوار أمها.

تولّى النهار الذي قضته بجوار والدتها وأعقبه الليل ليغشاها بستائره التي تمنّت أن تبتلع هذه الأفكار التي تتزاحم في عقلها ولكن هيهات، فهي من مدمني التفكير، عقلها كرحى تطحن أفكارها، التي لاتكلّ ولا تملّ فلا تتركها إلا حين يختطفها النوم رغماً عنها .

ألقت بنفسها على وسادتها فهى حضنها الذى تحتمى فيه عندما يؤنبها أخوها سالم، الذي كثيرا ما ضيق عليها ولولا وقوف أمها بجانبها لمنعها من تكملة دراستها، بعد وفاة أبيه ولكنها المدللة الأريبة للجميع، درة أبيها كما كان يطلق عليها دائماً وقد وافق أن تكمل تعليمها إلى أن تتزوج ولا يمكن أن يكسر أحد كلمة قالها، تدفن رأسها

تحت الوسادة تستجدي النوم أن يزورها ولكن هيهات!! فقد جافاها النوم ولم يغمض لها جفن حتى تسللت أشعة الشمس من نافذتها إيذاناً بميلاد يوم جديد.

وعلى الجانب الآخر يتململ أحمد هذا الشاب القاهري الذي جاء مرغما إلى تلك القرية النائية بأمر من أبيه ،كانت مهمته أن يزور عمته ،ولكن ترسم لنا الأقدار غير ما خططنا ،يتعجب أي قدر هذا الذي أوصله إلي هنا ؟! لم يكن المفروض أن يحضر لولا مرض أبيه، جاء دون رغبته ، فهو يكره عادات وتقاليد الصعيد، حتي عمته هي من كانت تقوم بزيارتهم، أما صلة الرحم فقد كانت لأبيه.

يتذكر ما حدث في الصباح، تلك الفتاة التي رآها خطفته للحظة من نفسها، شيء فيها لم يعهده من قبل، ربما حياؤها وهذا الخجل الذي بدا عليها عندما رأته.

يعرف الكثير من البنات فهو يعيش في القاهرة ويختلط بالكثيرات في جامعته، ولكنه لم يكن يقبل بعلاقات الحب، فلم يصادفه! وكان يسخر من أصحابه، الذين يعتبرونه لعبة أو تسلية، أما هو فعلاقته مع الجنس الآخر أخوة وزمالة خاصة بعد أن فطر قلبه منذ سنتين عندما أحبّ ابنة الجيران، حب فطري، ألزمه أن يراقبها في صمت؛ فقد كانا يلعبان معا في صغرهما، ورآها تكبر أمامه تتفتح كوردة ندية جميلة كزهرة فواحة، وهي في الثانوية اعترف بحبه لها ثم التحقت بالجامعة فقد كان يكبرها بعامين، ولكن حبها له كان كقالب الثلج الذي ما أن تعرض لحرارة المواقف حتى ذاب، تغيرت طباعها كثيرا خرجت من الشارع الذي يسكنانه في حي شبرا، وتناست ما تربت عليه فصارت تقلد البنات في حركاتهن ولبسهن، وعندما ضيق عليها الخناق خرجت من عباءته وشيئاً فشيئاً تمرّدت على غيرته، ومحاولته أن تعود كما كانت بنقائها وأخلاقها التي تربوا عليها معاً.

ومع كثرة أخطائها وتغير طريقة ملبسها وأخلاقها، وتشبثها بصديقات مستهترات زهدها أحمد، وكأنها كانت حلماً منسوجاً، فلما تحولت لواقع صار واقعاً مشوهاً

لايرضاه لنفسه، ولكن كان يؤمن في قرارة نفسه أنّه في يوم ما سوف يجد من تُقاسمه روحه وقلبه، ولن يقبل دون ذلك، فالحب عنده شيء سامٍ وراقٍ ليس للّعب أو اللهو.

ظلّ يتقلّب في الفراش وكأنّه محموم لا يستقيم له جنب ولا يهدأ له بال، يتمنى أن تمتد يده؛ ليجلب الشمس من مرقدها، أو يلملم عباءة الليل السوداء، ويفرض علي الدنيا نهاراً يصنعه بيده؛ ليعرف قصة تلك الفتاة التي سلبت لبّه، وحرّمت علي عينه النوم.

انتظر أوّل شعاع للشمس وخرج، دون أن يشعر به أحد؛ لينتظرها تحت الشجرة، ولولا خوفه أن يُتهم بالجنون؛ لنام تحتها حتي تشرق الشمس.

في الصباح دخلت مريم حجرة أمها فوجدتها متربعة على سجادة الصلاة تدعو وتسبح فقبّلت رأسها ويدها، ووضعت رأسها على ركبتيها.

فأخذت الأم تمسح على شعرها وتتمتم بالفاتحة والمعوذتين، وتمسح على جسمها، حتى هدأ القلب المضطرب وكادت أن تنام ولكن أمها هزتها قائلة:

قومي لتناول الإفطار لتذهبي لمدرستك يا كسولة.

ـــ حاضر يا أمي ولكني لا أشبع من حنانك ولا أشعر بالراحة إلا بين أحضانك.

ـــ بارك الله فيك وفي أخوتك يا ابنتي ورزقك بالزوج الصالح الذي يصونك ويعرف قيمتك.

ـــ بارك الله في عمرك يا أمي، لا حرمني الله منك أبدا يا نبض قلبي.

ـــولا منك يا عصفورتي الجميلة.

ابتسمت مريم وقامت من على حجر أمها، واتجهت للمطبخ لتناول الفطور.

ارتدت ملابس المدرسة وانتظرت سناء أمام البيت بنشاط وحيوية، لم تكن سناء معتادة منها علي ذلك، فقد كانت تتعب معها حتى توقظها وأحيانا كانتا تذهبان متأخرتين عن المدرسة.

تعجّبت سناء عندما رأتها فبادرتها قائلة: ماهذا ؟! منذ متي تستيقظين مبكراً ؟! كنت أحملك من السرير كي تقومي وتغسلي وجهك وكثيراً ما نضحتك بالماء، حتى لا نتأخر عن ميعاد المدرسة.

لم ترد مريم ولم تشاكس سناء، كعادتها فقد كانت مشغولة بأمرٍ آخر، فعيناها عالقتان بالطريق حيث هذا الطيف الذي يسكن الشجرة،

ولأنها لا تعرف اسمه، أطلقت عليه طيف الشجرة.

تأبّطت سناء ذراعها وهمّتا للذهاب فى الطريق الرئيسي، فسحبتها مريم الى الطريق الآخر تعجبت سناء، وقالت:

ماذا بك يا مريم ؟! أليس هذا الطريق المليء بالحفر الذي كنت ترفضين السير فيه، ماذا دهاك اليوم ؟! لم تكن مريم تسمع إلا صوت قلبها الذي كانت تزداد نبضاته مع كل خطوة، تعجبت سناء وقالت:

_ماذا بك هل ندهتك النداهة ؟ لماذا لا تردّين عليّ ؟ ماذا بك ؟! لقد تركتك يوماً واحداً فماذا حدث فيه ليغيرك هكذا ؟!

_لاشيء يا سناء، يبدو أنني أُصبت بالبرد، فلا عليك حبيبتي، اعذريني وهذا طريق سريع قد سرت فيه بالأمس ووصلت بسرعة.

هناك تحت شجرة التوت كان ينتظر وصولها، وما أن لاحت له مع سناء حتى استقام واقفاً ينفض التراب عن ملابسه؛ فقد كان يجلس منذ أكثر من ساعتين، توجّه إليهما مما جعل ضربات قلب مريم تتزايد وتمسك في ذراع سناء، وكأنّها تستنجد بها.

لم تدر مريم ماذا تفعل ؟! قلبها يكاد يفارقها، احمرّ وجهها خجلاً، وأطرقت للأرض.

شعرت أنّ الأرض تميد بها، تريد أن تتقهقر عائدة ولكن هناك شيء يقيدها، يستحوذ عليها، كان كل ما فيها ينطق ماعدا لسانها، ارتعاشة أصابت قلبها الغض، وسرت حمّى في أوصالها.

لم تستعد نفسها إلا وسناء تُسرع الخطى وتقول: أهلاً أحمد... ماذا تفعل هنا ؟

اعتقدت أنك سافرت، عندما لم تكن موجوداً علي الإفطار، فقد قلت أنك ستستقل قطار الفجر.

لم يرد أحمد كان كل همّه أن يختلس نظرة قريبة من مريم، وهي يكاد قلبها يقفز ولا تستطيع الوقوف من ارتجافه.

لا حظت سناء أنها لم تعرّفهما على بعضهما فبادرتهما قائلة:

مريم هذا أحمد ابن خالى جاء لزيارتنا، هو من سكان القاهرة، وهذه مريم يا أحمد صديقتي ورفيقة روحي.

مدّ أحمد يده ليسلّم عليها، فشعور غريب يخالجه، ظلّت يده ممدودة، ومريم خجلى لا تستطيع أن تتحكم في ارتجافة قلبها، بادرتها سناء قائلة:

سلّمي يا مريم

فمدّت يدها، وكأنّها أوقعتها في يده، أما هو فقد شعر وكفّه يحتضن كفها وأن روحه قد عادت إليه.

سحبت يدها من يده، وجذبت ذراع سناء وهي تقول:

سنتأخر عن المدرسة، هيا بنا.

غادرا إلى المدرسة ومريم متشبثة بذراع سناء

حتي وصلا إلى المدرسة وغابا عن نظره.

يقف أحمد هذا الشاب القاهري الوسيم مليح الوجه ذو البشرة البيضاء والشعر البنى، والجسد الرياضي، مظهره يبدو للرائي مختلفاً عن شباب الصعيد، رغم أصوله الصعيدية، فلم تلفح جبهته شمسها الحارقة، ولم يترب في الحقول بين الماشية والطين في صغره، فيكتسب جلداً خشناً وسمرة.

يتذكّر كيف جاء الي هنا إرضاء لأبيه على أن يعود للقاهرة فى اليوم التالى؛ فما كان يطيق أبداً جو الصعيد، فقد غادره أبوه منذ مدة طويلة بعد أن أتمّ تعليمه في القاهرة وتزوّج من أمه بعد قصة حب جمعتهما ورفض جده أن تعيش ابنته بعيداً عنه فما كان من أبيه إلا أن ترك أرضه لزوج أخته وابن عمه، واستقر في مكان عمله وفي كلّ عامٍ يأتى زيارة لأخته، وبينما يستعد للسفر فاجأه المرض؛ فأرسل أحمد، ليحلّ محله.

فاستقل القطار متأففاً؛.فقد داهمه صداع شديد

ولكنه زال عندما وصل، وكيف قابلته عمته وزوجها بترحاب وحب شديدين، كادت تطير به فرحاً، فهو ابن أخيها الوحيد، أعدّوا له الغرفة التي كان ينزل بها أبيه وأخبرته أنها تريده أن يقيم معهم بضعة أيام، فهذه أول زيارة لهم منذ أن كان طفلاً، ولابد أن يتعرف على بلد أبيه وأجداده، ويرى أرضه التي ستكون له بعد أبيه، ولكنه اعتذر بسبب الدراسة فهو فى السنة الأخيرة لكلية التجارة.

تناول العشاء مع عمته وزوجها،،ودخل الحجرة ليستريح من عناء السفر، ولكنه لم يستطع النوم، ومع أول خيوط النهار خرج بين الحقول لينعم بالجو قبل أن تزداد حرارة الشمس واستقر به الحال تحت شجرة التوت حيث رأى مريم، وكيف شغلت قلبه وفكره منذ وقع بصره عليها.

تذكر كيف كان يحلم بالحب وبتوأم روحه، يؤمن بتلاقي الأرواح، وبأنها موجودة فى مكان ما، لم يجدها فى كل من حوله من بنات، كان يعرف أنّ الحب لن يطرق بابه بل سيأتي على هيئة قنبلة تجزأه إلى قطع ثم تجمعه، مع من يحب فيصيرا قلباً وروحاً واحدة، هكذا كان ينظر للحب. كان هادئاً خجولاً يحسبه من حوله غامضاً، ولكنه كان ينأى بنفسه عن البنات أراد أن يظلّ قلبه طاهراً عفيفاً، فقد خلق ليسكنه نصفه الآخر.

ثم أخذه قلبه وتذكّر الأمس، وكيف تغيرت نظرته لكل شيء، وتمنّى أن يوافق على طلب عمته بالبقاء أيام ليتعرف أكثر على مريم فربما ازداد يقيناً بأنّ ما تمنّاه طوال حياته وجده وعن طريق الصدفة.

وبالفعل لغى فكرة سفر الفجر، وانتظرها تحت الشجرة في اليوم التالي وكم كانت سعادته حين رآها برفقة سناء، إذن هي صديقتها فقد صار أمر التعرف عليها سهلاً...

وها هو قد سلّم عليها ورآها عن قرب، وشعر فعلاً بأنّ قلبه قد تعلّق بها، فما شعر به حين لمس يدها لم يشعر به في حياته، وبينما هو فى حديث نفسه رأى زوج عمته والد

سناء، آتياً من بعيد يبدو رجلاً طويلاً نحيل الجسم،،هاهو أحمد يتذكر ما كان يقوله أبوه لعمته فكثيراً ما كان يمازحها قائلاً:

لا أدري كيف وافقنا على زواجك من رضوان حميدة يا محاسن، فأنت قصيرة سمينة وهو طويل هزيل، ولكنه ابن عمنا فمن كانت ستقبله غيرك... فيضحكان.

وهاهو قد وصل إلى حيث يقف أحمد فيقابله بابتسامة، فزوج عمته رجل طيب ويحبُّها بشدة فقد شعر أحمد بمدى طيبته وكرم أخلاقه في استقباله وحفاوته به منذ أن وطأت قدماه بيته، يحادثه بأريحية وود، وكأنّه أباً يُحادث ابنه.

لم يكن لرضوان أبناء سوى سناء، إذ تعرض لحادث بعد أن أنجب سناء أفقده قدرته على الإنجاب، إذ وقع من فوق حصانه فأصيب بكسر في عموده الفقري، ولسنوات خضع لعمليات حتى فقد الأطباء الأمل حتى في قدرته على المشي مرة أخرى، ولكن بالعلاج المستمر والحجامة وبعض الوصفات استطاع أن يمشي باستخدام عكاز لا يفارق يده.

عندما وصل رضوان إلى حيث يقف أحمد قطع حديثه مع نفسه فقد أراد أن يأخذه فى جولة في الأرض، نظر إليه أحمد مشفقاً قائلاً:

لا تتعب نفسك يا عمّي فقد رأيتها من مكاني هذا ولا أريد أن أرهقك.

_ليست هذه الجولة لك بل لي، فمنذ فترة لم أمر بهذه الأرض وسوف أستغلك لتكون لي سندا ألست مثل ابني ؟ فما رأيك ؟

_ أنا رهن إشارتك يشرفني يا عمي هيا بنا.

وانطلقا يتجوّلان ويتبادلان الحديث.

تغمر أحمد السعادة، والابتسامة لا تفارق شفتيه، فلم ير منظر النيل وهو يتدفّق بين شاطئيه بهذا الجمال وحوله الأشجار وعلى جانبيه أرض مزروعة بكل المحاصيل والثمار وأخذه التفكير إلى حيث مجرى النيل هناك في القاهرة يتعجب من حاله.

سبحان الله لم يهبنا إلا ما هو جميل ونحن من نشينه أو نجمله فكلما زادت المدنية قلت قيمة الأشياء، فتطغى المادة وتعلو قيمة الاستفادة فالشيء جميل بقدر ما يهبني من منفعة، نتغافل أشياء وندمرها دون أن نشعر، وهذا ما حدث لنهر النيل في القاهرة إذ تسرب العمران والمباني ليذهب روعته بالإضافة للعشش والأكواخ التي أفقدته جماله، ولم تكتف بهذا بل طالته يد التلوث فصار مرتعا للمخلفات والقاذورات.

عاد أحمد من جولته الذهنية على صوت رضوان وهو يقول له:

_مارأيك في هذه الجنة يا أحمد؟

_هي جنة فعلاً لمن يُقدرها.

_اعتبرها كذلك يا بني وإن كنا نعيش في بيئة مغلقة إلى حد ما، وينقصنا الكثير ولكن الأرواح

لا تحب الزحام والتصنع ولذلك نلتمس الهدوء والراحة هنا حيث الماء والخضرة والطبيعة التي مازالت على فكرتها.

_نعم أوافقك الرأي، فقد تغير في الكثير منذ وطأت قدماي هذه الأرض.

أنهى أحمد ورضوان جولتهما ومضيا معاً حتى وصلا للمنزل.

حان موعد رجوع مريم وسناء، عادتا من نفس الطريق ولكن أحمد لم يكن فى الانتظار رغم أنه كان يتمنى ذلك، إلا أن زوج عمته لم يتركه.

وقفت مريم أمام الشجرة لحظة، فسحبتها سناء من ذراعها، وعيناها عالقتان بالشجرة، تنظر سناء إلي تلك المفتونة وتقول لها: ماذا بك ؟! ماذا جرى لك ؟! وهي لا تزيد، عن قولها:

إنه البرد يكسر عظام رأسي ويفتك بأضلعي

فترمقها سناء قائلة:

وهل يصيب البرد القلوب، أعلم حبيبتي، فها أنا أشعر بحرارة قلبك عن بعد.

تبتسم مريم ولا تعرف كيف ترد بينما تحاول سناء أن تطيل النظر إليها علّها تفهم ماذا تخفي تلك الجميلة ؟

تبتسم مريم وتجري ما بقي لها من طريق حتى وصلتا للبيت.

ودعا بعضهما وانطلقت الفتاتان كلّ إلى بيته.

دخلت مريم لبيتها، شاردة، تتساءل: أين ذهب ؟

أيكون قد سافر دون أن أراه ؟ هل كان موجوداً فعلاً أم أنني واهمة ؟ لابد أنه قد سافر كما قال لسناء ؟

أيمكن أن يكون حُلماً تراءى لي وانتهى ؟ أرهقتها التساؤلات ونفضتها عندما سمعت أمها تنادي عليها، فهي تعلم أن هذه الحقيقة ما هي إلا حلم يقظة ولكنها تمنت أن لا تصحو منه.

قبيل المغرب وجدت مريم طرقاً على الباب، وعندما فتحت وجدت أمامها سناء، دخلت بسرعة وأخذت مريم إلى غرفتها...

أرادت مريم أن تسألها عن أحمد، ولكنها شعرت بالخجل، وفي لحظة أقنعت نفسها أن تسأل لتكف هذه التساؤلات وبينما تفتح مريم فمها لتسأل:

بادرتها سناء قائلة: مريم لدي لك مفاجأة لن تصدقينها...

نظرت إليها مريم نظرة تعجب وسألتها:

هات ما عندك يا سناء وسامحيني، فما زلت متعبة.

بادرتها سناء قائلة:

_أحمد إنه لم يكفّ عن الحديث عنك.

_أحمد ألم يسافر؟

_لا لم يسافر بعد.

_تعلمين، هو ابن خالي ولكني لم أره سوى مرتين كنت فيهما مع أمي وهي تزورهما ولم نتحدث سوى بكلمة أهلاً والمصافحة باليد

كنت أظنه متكبراً، ولكن عندما حضر إلينا رأيت شخصاً مختلفاً؛ فهو مؤدب وودود، ورغم أنه في ضيافتنا فلم يحدثني بكلمة منذ وصل ما عدا السلام، واليوم إذا به يناديني، تعجبت في بادئ الأمر، ثم ذهبت إليه، فبدأ يسألني عنك، هل أنت مخطوبة؟ فى أي سنة دراسية؟ وأشياء كثيرة، كنت أجيبه وأنا أتأمل ملامح وجهه، لم يكن هذا هو أحمد العابس الذي حضر إلينا بالأمس، كانت ابتسامة تعلو محياه أشعر بأن نوراً يشع من عينيه .

تستمع مريم لسناء، ليس بأذنيها ولكن بقلبها، وروحها شاردة، انتبهت على قول سناء:

إنه مجنون، نعم مجنون

فبادرتها مريم وهي تتفحّص وجه سناء قائلة: لماذا تقولين هذا ؟!

لأنه يهذي بكلام غريب، إنه يقول أنه يحبك وأنك الفتاة التي يبحث عنها منذ زمن، والأدهى من ذلك أنه يريد أن يتزوجك، وأرادني أن أبلغك بذلك فليس هناك مجال هنا لأن تتحادثا، فأرادني أن أبلغك شعوره،،وعندما أخبرته أن هذا غير لائق عندنا؛ فالبنات لا تعرف إلا الزواج فقط، وجدته يقول لي:

وأنا سوف أحادث أبي إن لم يكن لديها اعتراض في أن أخطبها من أهلها.

سناء تتحدث وهي غير مصدقة، من كان يقول أن هذا سيحدث، شيئاً لم يكن في الحسبان

في هذه اللحظة كانت مريم صامتة لا تتحدث بكلمة ولكن هناك خافق يرقص فرحاً وروحاً تعزف له.

نادتها سناء قائلة:

مريم فيم أنت شاردة ؟

_لا أعرف يا سناء كلما أخذني الفرح تذكرت أن ما يحدث هذا لايمكن أن يكون فنحن مختلفان في كل شيء، ثم من سيقبل به وهو الغريب.

_تباً لهذه الأعراف البالية، نتعلم فترة من التعليم فقط لنتزوج ممن يختاره أهلنا، ولابد أن يكون من العائلة وحبذا لو كان ابن العم.

_الحمد لله، أولاد عمى قد تزوجوا لم يتبق منهم إلا واحداً، و قد سافر من زمن وإذا عاد ففارق السن بيننا عشرون عاماً.

_أنت أختي يا مريمة، ويعلم الله كم أحبك! فسعادتك هي سعادتي.

وأردفت مازحة وابتسامة تعلو شفتيها، بجمالها المتوسط ولونها الأسمر، وعينيها الواسعتين، وجسدها الممتلئ، وهي تدور بجسمها في حركة راقصة:

-لا أعرف، كيف لم يلتفت لجمالي ؟! كنت أظنه سيطلب الزواج مني، وأترك الصعيد، وجوّه الخانق وعاداته القاسية، لكن ماذا أفعل ؟ أنت صديقتي سأتركه لك، عن رضا نفس.

وتعالت ضحكات مريم وسناء...

عرفت سناء أن مريم لديها نفس المشاعر لأحمد رغم تعجبها فلم يعرفا بعضهما إلا بالأمس.

ولكنها أحبت أن تعيد عليها الكلام فقالت:

ماذا أقول لأحمد ؟

أأخبره أنك رفضت ؟

تضحك مريم قائلة:

يا مجنونة

فردّت سناء: أنا مجنونة فماذا تكونان أنت وهو؟! أهذا هوالحب؟! أدعو الله ألا يصيبني، فلا قدرة لي عليه.

ضحكت مريم ورمقتها بنظرة مزيج من الفرح والخجل، ثمّ همّت سناء بالانصراف وبادرتها قائلة:

مريم، أحمد سيسافر غداً، ويريد أن يراك قبل سفره، قال أنه سينتظرك غداً تحت شجرة التوت، لا يعرف تقاليدنا وأنه لا يمكن أن يراك هناك لأن العيون المتربصة كثيرة وأنت معروفة، ومجرد النظرة ستفسر على حسب الأهواء وأحمد غريب أي شخص سيراه سيميزه.

_ وما الحل يا سناء، يجب أن أراه، أقصد أن أسلم عليه

_ ما رأيك أنت لم تزورينني منذ مدة وغداً الجمعة، وأبي سيذهب لزيارة عمتي المريضة.

وأمي تعرف كل شيء وهي تعتبرك ابنتها

استأذني سالم وتعالي لنستذكر بعض الدروس.

_نعم هذا هو الحل سأكون عندك غداً بعد آذان العصر.

_اتفقنا يا حبيبتي، سأذهب أنا الآن وسأنتظرك في الموعد.

كانت مريم فى عالم من السعادة تقول لنفسها (أيمكن أن يحدث هذا، فارس الأحلام الذي كنت أقرأ عنه في القصص، أتمني أن يخلصني من هنا، كنت أبحث عنه، ولكن

لم يكن له وجود لي فالحياة روتينية والأشخاص هنا لا يعترفون بالحب. فهذا الاسم لا يطلق علي أي علاقة ما يمكن أن يربط اثنان هو الزواج فقط)

ولكن... أهي سعيدة الحظ لهذه الدرجة ؟! وكيف ستسير الأمور ؟! وهل سيوافق أبوها وأخواتها ؟!

تتساءل أهذا هو الحب ؟ وكيف يكون ذلك، أن تشعر أن إنساناً اخترق عيناك ليسكن داخل دمك، يتوسد شرايين قلبك، يختلط بدمائك ويعانق روحك فتنتشي وتبادله عناق بعناق في انصهار لا يعقبه انفصال إلا بموت أحد الروحين أو كلاهما.

وبينما هي في سكرتها سمعت صوت أخيها سالم وكأنها كانت في حلم واستفاقت منه. نفضت جسمها سريعاً وقامت لتُبدّل ملابسها.

تكالبت عليها الأفكار ورفع العقل صوته متسائلاً:

كيف تحب شخصاً لا تعرفه ؟! ولم تلقه إلا مرة واحدة وليته وقت طويل بل مارهي إلا ثوان معدودة قلبت ميزان القلب وأطلقت للروح العنان لتفتح له أبوابها على مصراعيها.

تراجعت الابتسامة شيئاً فشيئاً، وكأنه ماء قد انحسر عن شاطئه، وأخذت تُحدث نفسها بصوت لا يسمعه سواها قائلة:

ما هذا ؟! أهو الحب من النظرة الأولى كما يدعونه، ولكن لماذا أصابني ؟ ألا يكفي ما أنا فيه من رفض لهذه البيئة التي لاتعترف بحق للإناث اللائي اختبرني القدر لأكون إحداهن، فما أصعب أن تكون أنثى في هذا المجتمع !

فأنا أعلم تمام العلم أنّ الحب حرام عرفاً فى مجتمعنا، وأنني سوف أتزوج دون أن أعرف الحب أو أتذوق له طعماً، كما حدث مع أختاي

ثم علت نبرتها محدثة نفسها:

أفيقي أيتها المخبولة، الحب ليس للبنات هنا، ما قرأتيه من روايات كنت تخفينها عن إخوتك ليس لك، كنت تعلمين ذلك وطردت كل الأفكار التي ساورتك من قبل، ثم لماذا يأخذك الخيال بعيداً؟ مجنونات نحن معشر الفتيات ننسج بيوتاً من أحلام لنظرة أو كلمة أو وعد ونعيش الخيال كأنه واقع ثم يتضح أنها خيوط عنكبوت وهي أوهن البيوت.

كل النساء هنا يتزوجن من يختاره آبائهن، يجبرن ولا يخيرن.

تبتسم ابتسامة سخرية ومازال الحديث الذي دارت رحاه في رأسها قائماً.

شعرت بضيق شديد كأنها قد ألقيت في بحر مائج من الأفكار لا تستطيع حتي التقاط الأنفاس.

فخرجت مسرعة هربا من أفكار تتكالب عليها وتفترسها كأسد جائع.

وحاولت أن تنام ولكنه عصي عليها، أغمضت عينيها، هدأت الأنفاس ثم سرقها النوم

فنامت وهى تحلم بالغد.

الفصل الثالث.

من ذاق الحرية تُمزّعه القيود ومن ذاق طعم الحب، تجرع مرارة فقده!

"انتفاضة روح"

في الصباح...

استيقظت من النوم مبكراً وهي تدندن كعصفور نال حريته، فبات يشدو ويرقص فرحاً.

قامت لترتدي ملابسها تنظر فى المرآة، لأول مرة تشعر بجمالها وكأن وجهها قمراً مضيئاً ولمعة عينيها، نهران من عسل مصفى، سطع عليهما شعاع الشمس فانعكس بريقاً يسلب العقول.

وهذا الشعر الذي يشبه الليل في طوله وسمرته بدا كسماء مظلمة سطع فيها وجه القمر؛ فظهر نوره جلياً، كل ما فيها جميل فقد كانت رقيقة الجسم غضة بضة تتحسّس وجنتيها المشتعلتين وأنفها الرقيق وهاتين الشفتين الكرزيتين. وتساءلت هل أنا جميلة هكذا؟ وكأنني لم أر نفسي من قبل، أم أنّ هذا أثر الحب؟!

جاء الموعد.....

استأذنت مريم والدتها فوافقت على أن تعود للبيت قبل آذان المغرب.

خرجت قاصدة بيت سناء وقد ألبسها الحب جناحين، صارت تطفق بهما.

وصلت إلى البيت... طرقات بكفها الرقيق على الباب أصابت قلب أحمد، فكأنما طرقت على صدره فانتفض قلبه ليلقاها مسرعا.. يفتح الباب وقد بسطت روحه ذراعيها

لتضمها فتلاقت عينيهما وابتلعهما الصمت، جاءت سناء من حجرتها مسرعة لتقابل صديقتها، ابتسمت في وجه أحمد ابتسامة ماكرة ونحته جانباً.

دلفت مريم على استحياء غاضة الطرف ينتفض قلبها كعصفور ينتفض، تقف أمامه في باحة البيت:

_أهلاً مريم.

_أهلا بك.

_أتعلمين كم أنا سعيد بك

اعذريني، ولكن لي معك قصة فأنا أعرفك منذ زمن.

_تعرفني

_كيف وسناء تقول أنك لم تطأ هذه البلدة من قبل.

_نعم ولكني كنت أعرفك داخلي ولذلك تعرفت عليك عندما رأيتك كنت أبحث عن نفسي، عن بعضي، لا نشعر أننا ينقصنا شيء إلا حين نجد من يكملنا حقاً وبك اكتملت.

حاولت أن تنطق فتلعثمت، حمرة الخجل تكسو وجهها، وصوت خفقات قلبها تعلو علي صوتها

هرب منها الكلام لم تكن تصدق نفسها، فبادرها قائلاً:

أعلم ما في نفسك، فلو لم تكوني نفسي لما شعرت بهذا الشعور، يكفيني أن أرى الحب في عينيك.

أؤمن أننا تلاقينا قبل ذلك بأسماء أخرى، في أزمنة أخري، وسنلتقي في أزمنة جديدة، فقد قُدر لأرواحنا اللقاء.

كثيرون يهيمون بحثاً عن أنفسهم، منهم من يجدها ومنهم من يتوه، وقد يجدها بعد فوات الأوان، أما الآن وقد وجدتك؛ فسيظل قلبي قابضاً علي قلبك، نابضاً بحبك، طول العمر لا تتعجبي من قولي، فلست مجنوناً أو عابثاً، فقد قدر لنا اللقاء بعد أن عز علينا، أنت أمنية تحققت، فاعذري شغفي.

هو يتحدث ومريم في ملكوت آخر قد نسجه لها... طارت روحها مع روحه.

احتضنها الحب كزهرة قد بثّت رحيقها، فطفقت تخصف عليها من أوراقه لتواري سوءة مجتمع، يراها عاراً علمت أنّ لها قدراً آخر، وها هو قدرها، يقف أمامها، قد شغفها حباً، بابتسامة تعلو محياها، ونظرة تتلألأ فيها صورته، كشعاع شمس علي سطح الماء، أو كصورة بدر، قد ألقي بنفسه ليسبح فيه، يرى نفسه في عينيها، وتراها في عينيه.

وسناء واجمة، تتعجب مما ترى وتسمع، لا تريد أن تقطع حوارهما، ولكنها تخاف على هذا الحب الرائع، الذي بدأ عملاقاً، فلم يمر عليه سوى سويعات و كأنه وُلد معهما أو أن كان ينمو منذ بدء الخليقة، ثم أتى فابتلعهما داخل أوديته فصار لهما عالماً موازياً للعالم الحالي.

ينظر أحمد لمريم هامساً:

سأذهب لأعود بأبي، لقد وجدتك ولن أتركك مرة اخرى، ولكن أبي مريض، عندما يتعافى، سأحضره ليكلم والدك.

ولا شك أنه سيوافق، فأبي أصلاً من أهل البلد، فلن يدعوني غريباً...

ومريم صامتة فما زالت غير مصدقة، كيف يحدث هذا، وكيف يترك هو كل بنات القاهرة، ويأتي إلى الصعيد ليحبها هي، قالت له ذلك فأجاب تعلو وجهه ابتسامة: لا

تسأليني بل اسألي قلبي وقبله اسألي قلبك كيف رآني بهذه السرعة وكيف أشعر بنبضه الآن بين أضلعي.

الحب لقاء، وقد كتب لنا هذا اللقاء وهناك من لا يكتب له فتظل روحه شريدة..

كان هناك طرف ثالث شاهد علي هذا المشهد الرائع، تقف سناء واجمة، تستند علي الحائط. تنظر إليهما، وكأنها تشاهد فيلماً من الأفلام القديمة، تتعجب مما يحدث فلم تكن تُصدق أن هناك مثل هذا الحب علي أرض الواقع...

حان موعد مغادرة أحمد فالقطار ينتظره في السادسة مساء، وهاهي الساعة تدق الخامسة ودقات قلبه تنافسها صخباً.

استأذن ثم سلم على مريم وسناءواحتضنته عمته وأعطته بعض الهدايا لأبيه وأمه ومضى تشيعه الفتاتان بنظراتهما، ولكن اختلفت نظرة مريم فقد خالطها الدموع، هاهو الحلم قد تلاشى وقليل من الأحلام ما يتحول لواقع

تعود مريم لبيتها كوردة تفتحت على ضوء الشمس وغسلها الندى بقطراته الندية فاكتمل تفتح أنوثتها، سبحان الله نرى الأشياء حولنا بأعيننا ثم نعتادها فلا نلتفت إليها فما الذي يجعلنا نراها بشكل مختلف، إذا فالاختلاف داخلنا لم تتغير شكل أعيننا ولا قدرتها على الإبصار وإنما هناك شيء ما هو الذي يجعلنا نرى الأشياء جميلة أو قبيحة، يجعلنا نرقص طرباً أو نتقوقع داخل أنفسنا، نتجعد ونحجب عنا ضوء الشمس حتى نشيخ ونحن في ريعان الشباب. ولكن ماهذا الذي يجعلنا نرى الأشياء بشكل مختلف؟ كيف تتغير النظرةن؟ نفس الطريق ونفس السماء، الأرض، الأشخاص، الذي يضفي عليهم هذا الجمال، إنها الروح عندما تتنفس والقلب عندما يبصر، ساعتها تكشف عن أرواحنا الحجب، فلا يعود شئ كما كان من قبل، هذا ما يسمى عين البصيرة، حين نرى الحياة بوجهها الضاحك حتى ولو كانت عبوساً، نرى نصف الكوب الممتلئ، فالقبح والجمال نسبيان، بحسب حالتنا المزاجية ودرجة

صفاء الروح، فنحن نرى الجمال حين نشعر بلذة الحياة، صدفة أو لقاء أو حدث يتغير في عيوننا لون الحياة التي اعتدنا أن نراها دائمة، بلون رمادي باهت، شيء يكسبها رونقاً، كأشجار خريفية يأتيها الربيع فيكسوها خضرة وزهوراً يضوع شذاها فنحتضن الهواء ونطير لنلامس السحب المارة، نأخذ عبق الزهور داخلنا نرتشفه، نبتسم دون سبب إلا أننا نشعر بأنّ أرواحنا قد تحررت، فنحن نضفي ما في داخلنا على ما حولنا وتزداد جمالاً واكتمالاً به

فالبيئة التي تمنحنا معني القبح وصفة الجمال

ولذلك نرى أن ما يستقبحه شخص يحبه الآخر

والعكس صحيح، لاختلاف الأذواق والإدراك

فالإنسان يرى بعين نفسه، وكما قال الشاعر إيليا أبو ماضي :

كن جميلا ترى الوجود جميلا

فحين نحب تعلو الروح عن الجسد، فنرى شق الحياة الوردي ومعانيها الجميلة لا يعود أي مما اعتدنا عليه لسابق عهده، فكأننا بالحب صرنا فراشات قد شقّت شرانقها، وخرجت لتتعرف على عالمها الجديد.

في القطار، ترافقه مريم بكل تفاصيلها، ابتسامتها تملؤه سعادة، ونظرتها تملك روحه وقلبه.

ولكن ما إن بدأ القطار يتحرك حتى تملّكته رعشة فلم يدر بنفسه إلا وهو على الرصيف متوجهاً لبيت عمته.

لم يستطع أحمد أن يسافر فقد قرر أن يؤجل سفره استأذن من والده وأخبره أن الجو هنا أعجبه وسوف يبقى على أن يسافر آخر الأسبوع.

استمر وجود أحمد أسبوعاً كاملاً كان كل ما يرنو إليه هو أن يرى مريم ولو من بعيد، ليكن حتى طيفها الذي قد رسم في عينيه فيراها في كل شئ على صفحات الماء وأوراق الشجر بل وعلى السحاب الذي يسبح في السموات.

كان يراها من بعيد ولكن روحها كانت بين ذراعيه لا تفارق يدها يده، وكذلك هي كانت تشعر بوجوده من بعيد برجفة قلبها ومن عطره الذي كانت تعشقه، لدرجة أنها اشترت قارورة منه، كلما أخذها الشوق إليها رشت زخات على وسادتها لتتمثل صورته. وصوته حتى حركات يده ورجفة عينيه حين يراها.

فهو يراها أميرته التي تُوّجت على قلبه.

وكأنها عاشت طفولتها معه، شهدت معه لعبه ومرحة، كانت زميلة فصله التي عشقها منذ أن رأى عينيها ففي عينيها قصائد حب، ابنة الجيران التي يراها من خلف زجاج النافذة

يتمنى أن تخرج من بيتها ليتبعها، يحدج في العيون المتربصة بها ويدفع من يقترب عن طريقها، فإذا غازلها أحد جذبها من يديها جانباً وزجرها لأن جمالها وفتنتها هو مادفع الناس لذلك، وأنه ما إن يتزوجها حتى يجعلها لا تغادر البيت أبداً، فتبكي لأنه قسى عليها فتمسك ذراعها، وعندما يراها يهرع إلى ذراعها متسائلاً: هل أوجعتك، عذراً حبيبتي لم أتمالك نفسي، سامحيني فألمك يؤلمني، وهنا تربت على يده قائلاً:

لا تعتذر حبيبي، معك كل الحق وحين نتزوج سأظلّ في البيت ولن أغادره.

ثم يعود إلى واقع لا يستطيع فيه حتى أن يقترب منها أو يحادثها إلا خلسة.

تأهّب أحمد للسفر وقد زودته عمته بما لذ وطاب من خيرات الريف التي يسعد بها أهل المدينة من فطير وعسل وجبنة وبط وحمام هدية لأخيها وأولاده، شكرها أحمد وسلّم

عليها وأصرّ الحاج رضوان على توصيله للمحطة، رغم رفض أحمد ولكن مع إصراره الشديد وافق في المحطة على بعد دقائق من البيت.

استقلّ القطار ومضى وعيناه معلقتان بكل ماتقع عليه فقد صارت هذه البلد أحب البلاد إلى قلبه، وكيف لا وقد أودع قلبه صدر ساكنتها

مريم حبيبة روحه.

مضى الأسبوع الأول على سفره. وخياله لا يفارق مريم وكلماته تتردد في أذنيها، حتى صارت تحفظها وترددها لنفسها وكانت رسائله التي يرسلها لمريم عن طريق سناء هي زخات الندى على زهرة قلبها المتفتح بالحب، ما أجمل أن تزهر الروح وما أبهى الربيع إذا حل بقلب!! فيحوله جنة.

في الأسبوع الثاني تمرالأيام يوماً تلو الآخر، يتراقص قلبها مع مرور كل يوم كانتظار الأرض العطشى للغيث وهي تراقب غيمة فوق سمائها.

بدأت الإستعداد لمجئ أحمد فقد وافق أبوه ولكنه أخبره أن يذهب هو وزوج عمته ليطلبا يد مريم وأنه سيذهب فى الاتفاق.

في باحة البيت الكبير تحت تعريشة نبات اللبلاب الذي يلتف حول قطع طويلة من الخشب مثبتة بأشكال هندسية تجلس مريم في مكانها المفضل على الكنبة المكسوة بغطاء مبطن بالقطن تقرأ كتاباً تتصفّحه دون أن ترى الكلمات، سارحة في ملكوت آخر وابتسامة تملأ وجهها، لم تشعر إلا بسناء وهي تحيطها بذراعيها

-بماذا تفكرين؟ لابد أنك تفكرين بي وكما تقول أمي مثل جداتنا (جبنا سيرة القط جانا ينط) فيتضاحكان معاً، وتجرها مريم إلى غرفتها

_ ما الأخبار يا سناء، أخبريني لابد أن لديك خبراً ساراً وإلا لانتظرتي للصباح وما خرجت ليلاً.

_ لم أعد حبيبتك، أخذ أحمد قلبك كله، فتلكزها _بل أنت كل الحب حبيبتي فأنت أختي وصديقتي وتوأم روحي ولكن قولي لي بربك ما الخبر؟

_ قبليني أولاً، لأشعر إن كنت تحبينني حقاً أم لا.

_هاهي قبلة ثلاثية الأبعاد، انطقي وإلا أزهقت روحك.

_ سوف أنطق، لقد اتصل أحمد تليفونياً، واتفق مع أبي أنه سوف يرافقه ليطلبك من أبيك على أن يأتي أبيه في الخطبة بعد أن يتعافى تماماً.

_ ماأشد جمالك يا سناء! لكم أحبك! بل لكم أحب الدنيا، الدنيا التى لم أرها إلا في عيون أحمد.

_انظروا لتلك الشقية ما إن ذكر أحمد حتى نسيتني، لك الله يا سناء! دائماً منسية...

احتضنتها مريم وتضاحكا ثم جلسا يتفقان كيف سيكون هذا اليوم وماذا سترتدي العروس.

وفي زهوة الفرح دخلت أم مريم فسكت الكلام، فنظرت الأم إلى عيني ابنتها الراقصتين من السعادة...

الأم: ماذا تخفيان أيتها الشقيتان؟

وما هو الحديث الذي اجتثثتما جذوره فور دخولي؟ نظرت الفتاتان إلى بعضهما، وكادت السعادة أن تشي بمريم فكما يقولون (فالصب تفضحه عيونه)

مريم: لا شيء أمي فأنت تعرفين أننا كثيراً ما نتحادث في أمور كثيرة تعالي حبيبتي شاركينا.

الأم :رلا حبيبتي لدي بعض الأمور لأقوم بها قبل عودة والدك، جئت فقط لأحضر لكما الشاي

والتفتت عائدة وأغلقت الباب خلفها.

مريم: كنت سأبوح لها يا سناء فهي أمي ولابد أن تعرف، أعلم أنها ستفرح من أجلى.

سناء: هل جننت، ستقول من أين عرفته ؟ وإذا سألها أخوك سالم ستعترف له؛ فأنت تعرفين أمك لا تعرف الكذب وسيظهر عليها وقد يتسبب ذلك في مشكلة فلنصبر فكما يقولون إن غداً لناظره قريب.

مريم: نعم سناء لهذا لم أستطع البوح رغم أنها كثيراً ما سألتني لماذا أنت سارحة ؟ وما سر الابتسامة التي علي وجهك ؟ فكنت لا أعرف ماذا أقول ؟ أو كيف أبرر ؟ كنت أقول لها أنني مشغولة بامتحان ما، وأن ابتسامتي لتذكّري بعض نكاتك يا شقية ؟

سناء: أنا دائماً طوق نجاتك فلتحفظي هذه الأشياء بعد ذلك.

سأذهب الآن ونلتقي غداً في الصباح، وفي الطريق للمدرسة نكمل حديثنا...

ثم ودعتها وقامت مريم بتوصيلها إلى الباب.

ثم تعود مريم إلى حجرتها تحتضن حلمها الوردي الذي سيجمعها بحبيبها.

الفصل الرابع :

"تحيا العصافير في حضن الوهم تراقب وتطاير زغب الطفولة ونمو أجنحتها، تتنسم رحيق الحرية، لا تدرك أن هناك نسراً هي ضالته وفي أول محاولة لترك العش، تقتنصها مخالبه"

البيدق والطائر

ويهلّ صباحٌ جديد يضاف إلى عُمر مريم، كل صباح نستيقظ بمشيئة الله الذي يمنحنا كل يوم حياة ونحن من نلوّنها، أيام تتشابه وأيام تكون كعمر كامل، فقد نمنح العمر في لحظة يكسبنا نكهة خاصة وقد نحيا عمراً كاملاً لا نعيش فيه لحظة.

تصحو مريم على شقشقة عصفور يقف على نافذتها، يبدو أنّ أحد العصافير قد وشى بمريم وأخبره أنّ هناك أميرة نائمة خلف هذه النافذة؛ فجاء ليراها عندما يكون نور الحياة عينيها وتنتفض روحها داخل صدرها معلنة أنها عائدة إليها مرة أخرى بعد رحلة سكون.

تفتح له مريم بابتسامة رائعة، تمدُّ يدها لتلمس جناحيه، ولكنه يشقشق ويطفق بجناحيه ثم يطير صوب السماء، تزداد ابتسامتها اتساعاً فكم تمنت أن يكون لها أجنحة تأخذها إلى حيث تريد.

تبدأ يومها مع المدرسة بصحبة سناء والعودة إلى حضن أمها ثم مع صفحات قد جعلتها خصيصاً لأحمد لتبثّه حبها حروفاً قد ترنّمت بها أناملها على صوت نبضات قلبها.

تنزل إلى باحة منزلها بعد آذان المغرب حينما تهدأ أشعة الشمس لتدندن مع صوت فيروز من جهاز كبير كان لأبيها الحاج سلمان، كثيراً ما كان يستمع فيه إلى القرآن الكريم وفي أوقات الصفو والهدوء يسرح مع أنغام أم كلثوم أو فيروز

وها هي النسمات تحمل صوت مريم الساحر مختلطاً بصوت فيروز...

طل وسألني إذا نيسان دق الباب

خبيت وجي وطار البيت في وغاب

حبيت أفتح له على الحب

أشرحله

طليت ما لقيت غير الورد عند الباب

بعدك على بالي يا قمر الحلوين يا زهر التشرين يادهب الغالي بعدك على بالي

ياحلو يا مغروم يا حبق ومنتور علي سطح العالي...

جو صحو وقد حل الغروب مع نسمات صيف هادئة ترسم مريم أحلاماً في لوحة إلهية من صنع الله تشاركها السماء وهي تحتضن الشمس بلونها الأحمر وتلقي عليها وشاحاً أسوداً يغطي وجهها فتنام.

تنام مريم وهي تحتضن أحلامها، وأحمد هو كل تلك الأحلام في صحوها ومنامها.

فقد نما حبُّه كجنين بين حشا قلبها، صار للحياة لذة كانت تدركها بعقلها ولكنها الآن تشعر بها تعيشها بكل ذرة فيها، صار للنبض معنى وللأنفاس قيمة.

شعرت بمعنى أن تمتزج روحاً بروحك في نسيج يضمكما معاً.

يوم عادي يمرّ من حياتها، لاجديد فيه.

في المساء...

تجلس الأم تطوي بعض الملابس التي قد تمّ غسلها وتجفيفها في الشمس، ومريم بجانبها تحاول أن تذاكر دروسها، فقد دأبت على التميز بين رفيقاتها هيهات فها هو القلم بين أناملها لا تشعر به وإلا وهي تضع يدها على خدّها يوخزها سنه فتضعه بجوارها داخل الكتاب وهي على حالها عيناها سارحتان تومضان ببريق ابتسامة تعانق ورود شفتيها، وترسم صورة أحمد وهو يبادلها الابتسامة. فعقلها قد تبع روحها حيث يوجد قلبها النابض في صدر حبيبها.

لم تدر كم مر عليها لحظات أم ساعات فما لبث أن أيقظها من غمرة هذه السكرة التي تحتل كيانها طرقات علي الباب.

انتبهت لتبحث عن أمها، ولكن كانت قد غادرت وها هي تسمع صوت اصطكاك الأطباق في المطبخ حيث ذهبت لتحضير العشاء.

ظنّت أنها سناء، قد جاءت بخبر عن أحمد فهرعت إلى الباب على غير عادتها لتفاجأ برجلٍ غريب لم تر وجهه من قبل؛ فتوارت خلف الباب لتغطي شعرها الذي كان يظهر معظمه، بعد أن وقفت أمامه لحظة واجمة من صدمتها، وهو يتأمل وجهها مبتسماً:

_أين سالم؟

_من أنت لأخبره؟

_أنا ابن عمك، أنت مريم

قولي له حامد بالباب

تركت مريم الباب مفتوحاً، ودخلت مسرعة لتخبر أخاها الذي همّ لاستقباله بترحاب شديد،

أما هي فقد دخلت حجرتها ولم تخرج بعدها. تطاردها نظرة ذياك الغريب، الذي يقول أنه ابن عمها، ثم تتساءل أيكون هذا هو الذي كنت أسمع من زوجة عمي عنه أنه سافر منذ ثمانية عشر عاما ؟

ثم خرجت إلى أمها في المطبخ، تأملتها ملياً وهي تُعد الشاي للضيف ثم بادرتها سائلة:

_من حامد هذا يا أمي وكيف لم أره من قبل ؟

_انتظريني في غرفتك حتى أجهز الشاي لأخيك

جرت مريم وجلست متربعة على طرف السرير حتى دخلت أمها فاعتدلت وأفسحت لها مكاناً بجوارها.

تركّز مريم بصرها على شفتيها؛ فالفضول يقتلها لتعرف سر هذا الغريب الذي يقول أنه ابن عمها

تمسك الأم يد مريم تضعها بين كفيها فتوسّد مريم حجرها والأم تهمس بحنان كعادتها:

نعم هو ابن عمك سافر ومازلت في بطني، أصابه ما يعتري الشباب من ثورة لتغيير واقع حياتهم مع تدنّي الأوضاع، فضلاً عن الغلاء، ومحاولة إثبات الذات، يطاردون حلم السفر

إما لتغيير نمط الحياة أو للبطالة أو لمحاولة معرفة أنماط أخرى من المعيشة؛ فيلجأون للهجرة تاركين وراءهم قلوباً حزينة وعيوناً باكية، ضاربين كل الاعتبارات الأخرى عرض الحائط؛ فالهجرة حتى لو كانت غير شرعية في مراكب الموت التي يدفعون حياتهم دون مقابل هي الحل، لكل من أراد أن يهرب من مسئولياته متعلّلاً بلقمة العيش متناسياً أنه ربما سيجنى الكثير من المال، ولكنه سيدفع ثمنه أضعافاً ليس هو فقط بل من يعولهم.

لايدرك أنّ الغربة التي سيعانيها لن تفارقه ولو عاد فسيظلّ غريباً وسط أهله وبلده؛ فقد كفروا بأوطان لم تمنحهم حياة كريمة على أرضها، متناسين أنّ الحياة الكريمة لا تمنح ولكن تصنع بأيدي ترى العمل مهما كان- مادام شريفاً- شرف، وأنّ العرق الذي يتصبّب منه سوف يمنحه خيراً كثيراً، تناسوا الفرق بين التوكل والتواكل، وأن السعي لابد أن يجازي صاحبه بالرزق الوفير أما التقاعس وعضّ الأنامل والتغني بالشهادات التي حصلوا عليها وهم يجلسون على المقاهي يثرثرون فلن يجني إلا فشلاً؛ فالإنسان خُلق للعمل أياً كان طلباً للقمة العيش شريطة أن يكون حلالاً، والكد والتعب ملازمان لأي عمل مهما كان فلا ننسى قول الله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان في كبد"

وقد كان حامد منهم ورغم أنه يملك الأرض التي تحتاج إلى سعي وجهد، فقد خرج عن عرف أهله وقرر السفر ولم يكتف بعامين أو ثلاثة بل ظلّ هناك عمراً كاملاً بذل فيه زهرة شبابه وربيع سنواته.

_رائع حديثك يا أماه لأول مرة أراك تتحدثين هكذا من يسمعك لا يصدق أن هذا الكلام يصدر منك.

_ألأنني لم أكمل تعليمي؟ نعم لم أكمله في المدارس، ولكني تعلمته في مدرسة أبيك؛ فقد كان يحدثني في كل شيء ويناقشني، قال لي: أريدك أن تكوني واعية فلا نعلم ماذا تُخبئ لنا الأيام.

_ كان أبي رائعاً في كل شيء وأنت كذلك أعظم أم.

وواصلت الأم كلامها ومريم مستمعة فقالت:

_أتذكّر يوم سفره كان هذا بعد موت أخيه فارس (رحمة الله عليه وعلى أبيك وأخيك) بعشرة أيام كنّا في أوج حزننا، فقد توشحت البلدة بالسواد ونعق غراب الحزن فوق

الدور جميعاً دون استثناء، لم نكن نحن فقط بل البلدة كلها غشيها ضباب هذه المحنة التي خطف فيها زهرة شباب فارس، حتى أنه لم يقم فيها فرح إلا بعد موته بعامين.

ومن فارس هذا نعم تذكرت.. سمعت اسمه عدة مرات من زوجة عمي وهي تدعو له بالرحمة.

_نعم يا ابنتي مات في ريعان شبابه، كان أفضل شباب العائلة خلقاً وعلماً، بشوشاً طيب النفس، كان أشبه الناس بصابر وكانا مقربين جداً، ولذلك كان كل البلدة يحبونهما.

_كيف مات يا أمي؟ هل كان مريضاً؟

_ليته مرض وعالجناه أو كان هناك مقدمات لموته، ولكننا كنا نجهز لعرسه.

_لعرسه! هل مات يوم عرسه لا تقولي أنه عيار طائش من تلك الأعيرة التي يطلقها الرجال هنا فتخلع قلوبنا ويحدث منها حوادث كثيرة .

_لا يا ابنتي ،كان يؤدي الخدمة العسكرية، وانتهى منها بشهادة بحسن أخلاقه من الضباط الذين كان تحت إمرتهم.

وفي اليوم المشئوم وبعد أن صلّى الفجر مع والدك وعمك، استقلّ القطار إلى القاهرة ليحضر شهادة التجنيد فقد كان حاصلاً.على ليسانس شريعة وقانون وقدّم في وظيفة وكانت الشهادة لازمة لذلك.

_وهل أحضرها يا أمي؟

_نعم يا بنيتي، موجودة في حوزة العمدة ولكنها ملطخة بدمائه...

__دماؤه! هل قتله أحد؟

__ لا يا ابنتي فقد اعتاد بعض شبابنا أن يقوموا بالقفز من القطار أو النوم فوق سطحه، ومازال هذا يحدث حتى الآن رغم الحوادث المتكررة، هداهم الله.

__ ولماذا يفعل ذلك؟

__ لم يكن فارس يفعل ذلك مطلقاً، وقد كان يزجر من يقوم بها، ولكنه القدر... فعلها صديقه الذي كان معه فقد قفز عندما أوشك القطار أن يدخل المحطة وخفف من سرعته فنادى على فارس ليلحق به...

ضحك فارس ووقف على باب القطار قائلاً:

سأقفز لأنني في حالة جنون فقد اقترب زواجي وغداً سأتسلم وظيفتي، وأشعر بسعادة تغمرني وكأنني طير قد نبت له جناحان ويريد أن يطير

ثم قفز؛ فارتطمت رأسه بحجر ضخم، سكت فجأة وظل صديقه يناديه ويصرخ ويحثو التراب على رأسه ويردد ما قاله فارس قبل أن يموت.

تجمع الناس فقد خرجت القرية عن بكرة أبيها؛ رجالها ونسائها وكأن المشهد حي أمامي الآن

وأنا أراه مُلقى على الأرض والدماء تسيل من أنفه وأذنيه، مازلت أذكر تلك الابتسامة التي كانت على وجهه حتى أنّ أمه عندما رأته أصابتها حالة من الهذيان، وظلّت تصرخ وتقول: ابني حي... من قال أن فارس مات، فارس عريس تنتظره عروسه.

انهض يا فارس، أريهم بدلة الفرح، قل لهم أنك لن تتركني هل يترك الحبيب حبيبه؟

مازلت أتذكرها وهي تصرخ عندما جاءت عربة الإسعاف لتأخذه، جذبوه منها؛ وقعت مغشياً عليها فنقلت في نفس السيارة إلى المستشفي وتم غلق المحضر فقد كان قضاءً وقدر.

كانت أياماً قد كساها الألم والحزن، وكاد أبواه أن يموتا في أثره فقد أصيبت أمه بجلطة لم تتعاف منها إلا بعد سنة، وكذلك أبوه ظلّ وجهه كقطعة من الليل زمناً حتى لحق به بعده بعامين

_ألهذا ترك حامد البلدة وسافر، هروباً من ذكرى أخيه وحزناً عليه.

_لا يا ابنتي فقد عصر الحزن قلب الغريب قبل القريب على موت فارس كانت جنازته تدمي القلوب العيون دامعة والرؤوس منكسة والألسنة تلهج بالدعاء، وهم يحملونه إلى مثواه الأخير.

وكان حديث أهل القرية ومادة سمرهم، موقف حامد الذي بدا لهم وكأنّ الميت ليس أخيه، وكأن قلبه قُدّ من حجر، لم يذرف دمعه، ولم يزر الحزن ملامحه.

ظل بنفس الوجه الجامد، كلنا كان يعلم غيرته منه لمكانته في البلدة، وحب أبويه له ولكنه في المقام الأول أخوه، وقد مات فما يمنع أخ أن يحزن على أخيه إلا إن كان فقد إنسانيته!

هكذا كان دائماً مصدر تعب وقلق لكل المحيطين به فقد كان متقلباً في كل شيء إلا شيئاً واحداً فظاظته وغلظة قلبه فهو عاق لوالديه فلم يحاول يوماً أن ينال رضاهما.

_رُباه أي إنسان هذا! كفى أمي.

_أتعرفين يا بنيتي أنه ترك البلدة وسافر بعد عشرة أيام من موت أخيه، وترك أبواه يستجديانه فلم يعد لهما سواه وأخوته صغار وأبوه وأمه مريضان يأكل قلبهما الحزن، وقد ناشداه أن يبقى معهما، ولكنّه رفض وآثر أن يهرب من المسئولية، توقعنا له

جميعاً الفشل فمن يعق والداه ويتركهما في شدتهما، لاينال خيرا أبداً، ولكنّه قد عاد بوجه غير الوجه وبمال كثير، فعسى الله أن يهديه ويلين قلبه القاسي.

شعرت مريم بالإشمئزاز من هذا الشخص ولكنها آثرت الصمت فتركتها أمها ومضت إلى شئونها، أما هي فقد أخذها التفكير طويلاً حتى وجدت طيف أحمد يعيدها إليها، وظلّ برفقتها حتى خلصت إلى النوم.

اليوم التالى كسابقه لم يتغير شيء.

في المساء جاء حامد لزيارتهم يحمل هدايا لمريم وأمها، دهشت الأم، ساورها قلق، لم تستطع أن تخفيه عندما ناولها حامد كيس الهدية.

فهى تعرف أنه بخيل، فقد اشتهر بذلك منذ الصغر، فما الذي تغير؟

وقالت محدثة نفسها:

حامد وهدية لي ولمريم، أشعر بغصّة في قلبي، اللهم اخلف ظنّي.

وبينما الأم فى شرودها، وهى تقف بجوار إبريق الشاي، سارحة فى ظنها.

نادى سالم: الشاى يا مريم.

وهنا وضعت الأم يدها على رأسها وكأنّها سمعت خبراً مؤلماً، فقد تحقق ما كانت تخشاه.

فلم يكن سالم لينادي على مريم، بل كان ينادي على أحد أخوته الذكور أو أحد الخدم لجلب الشاى إليه، ولكن لم يكن لها إلا الانصياع فنادت علي مريم، التي أتت مسرعة من غرفتها، بعد أن قطعت حبل أفكارها وأحلامها.

_ نعم يا أمى

_أدخلى الشاى لأخيك يا ابنتى.

_ الشاي، أنا! حاضر...

أخذت مريم صينية الشاى، وتوجهت إلى غرفة الضيوف، وهى تتمتم:

لماذا أدخل أنا بالشاى؟! ومنذ متى؟! ليس لكونه ابن عمي فيكون لديه حق عندي، ثم إنه ثقيل الظل، لا أحتمل النظر في وجهه وخاصة بعد ما حكته لي أمي بالأمس.

تتقدّم ولا تدري ما هذه الانقباضة التى شعرت بها على باب الغرفة، وكأنّ الهواء خالياً من الأوكسجين، أخذت نفساً ودخلت بالشاى.

بادرها أخوها قائلاً:

_ألق السلام على ابن عمك يا مريم.

دُهشت مريم، ورفعت رأسها، ونظرت من طرف عينيها له وكأنّها تقول له:

لماذا أسلم عليه ؟! ما المناسبة ؟!

ولكن ما لبثت أن استجابت فما كانت لترد له طلباً.

أردف حامد بابتسامة، ثم ربت سالم على ظهر حامد قائلاً:

هذا ابن عمك، سافر قبل حتى أن تولدي، وعاد الآن بعد هذه السنوات، كي يحصل على الاستقرار، فهو شخص ناجح سافر للعمل بالسعودية فبدأ عاملاً بسيطاً، لم يخجل من ذلك وهو ابن الحسب والنسب؛ فاضطر أنّ يقوم بعمل شاق، لم يكن متوفراً له غيره، لأنه ليس حاصلاً على مؤهّل يساعده على إيجاد عمل مناسب، فلم يكن يحمل إلا الإعدادية، واستطاع بجدّه وتعبه أن يصبح له مكتب مقاولات وتحت يده أكثر من ألف موظف.

تستمع مريم بلا اكتراث فما لها هي وهذا الكلام وما شأنها بحامد هذا ونجاحه...

ظلّت مطرقة إلى الأرض تنتظر أن يفرغ سالم من كلامه رغم أنها ودّت لو تكلّمت وقالت:

وما دخلي أنا أن يسافر أو يعمل ؟!

ولكنها لم تستطع كي لا يغضب سالم، ثم رفعت طرف عينيها لتراه من قريب، فتلاقت عيناهما فابتسم حامد ابتسامة أظهرت أسنانه الصفراء تحت شارب كثيف، وذقن مدبب، وعينان جاحظتان وأنف كبير، وكأنه لوحة غير متناسقة المعالم، تراه مريم لأول مرة فلم تنظر إليه بالأمس.

تسمّرت في مكانها، ولكنها استفاقت في لحظة، وكان حامد يتفحصها ويتجوّل بنظره في كلّ تفاصيلها، وكأنّه يُقيم بضاعة عُرضت عليه لاحظت نظرته إليها، أحسّت أنّها تعرّت من ملابسها فأخذت تلملم ثوبها، وهي مضطربة وخرجت مسرعة.

انصرف حامد، وهدأ البيت.

مازالت مريم تتقلّب في فراشها قد جافاها النوم.

في الصباح ناداها سالم وهي تهمُّ بالخروج فأسرعت تحث الخطى إليه،.فبادرها بعد لحظات من الصمت على غير عادته معها قائلاً:

_ لقد كبرت يا مريم، وأريد أن أطمئن عليك، فهذه وصية أبي، تعلمين كم يحبك!

_ ماذا تقصد بكلامك هذا يا سالم ؟!

لا حرمني الله منك يا أخي.

-اسمعي يا مريم البنت لابد أن يكون لها بيت، بيتها ليس بيت أبيها وإنما بيت زوجها.

لقد طلب ابن عمك يدك للزواج، وقد وافقت فيكفي أن وصلت للثانوية العامة، بنات العائلة تزوجن بعد الإعدادية.

وهو أولى الناس بك، هذا عرفنا وتقاليدنا منذ الأزل.

تسمّرت مريم مكانها، وقالت متعجبة

عن أي ابن عم تتحدث يا أخي ؟

_حامد

_أنا أتزوج حامد، وقهقهت بصوت مسموع ثم وضعت يدها على فمها.

_بالله عليك كفاك مزاح يا سالم، ودعنى أمضي لحالي.

_وهل تعوّدت مني مزاحاً من قبل ؟

_أبداً ولكن هذا الأمر غريب جداً ما توقعته.

_تجهزي لهذا الأمر إذن، وكفاك ثرثرة يا عروس .

_عروس أنا ؟!

توقف الكلام في حنجرتها، فما سمعته الآن قادر على أن يشلّ لسانها، صار كالحجر الأصم لاينطق عقلها لا يستوعب ما يقوله سالم، هي تتزوج حامد لابد أن هذه مزحة مقيتة، في طريقها لحجرتها حاولت أن تملك رباط جأشها، وهمّت أن تعود لتتحدث معه، فإذا بمنادي يناديه فيخرج مسرعاً، تعود لحجرتها تُلقي بجسدها الذي صار ثقيلاً كأنّه يحمل أطنانا من الحجارة على سريرها.

كان لقاء مرعباً، وحديثاً كأنّه كابوس، فقد دخلت مريم وخرج شبح، تكسّرت روحها، صارت شظايا، تبعثرت فى كل أنحاء البيت.

فقد قرر أخاها أن يزهق روحها، فالموت ليس أن تصعد روحها الى السماء، ويهال على جسدها التراب ولكن أن تكسر روحها ويلقى الجسد بين ذراعي رجلٍ لايربط بينه وبينها شيء إلا صلة قرابة تجعل من حقه أن يأخذها كحقٍّ مكتسب دون أن يكون لها الحق أن تعترض، وها هو يعرّيها من تعليمها وثقافتها ووعيها ويعيدها إلى حيث توضع البنات على رفوف الزواج، وكأنها بضاعة... نخاسة وعبودية ولكنها اتخذت شكلاً شرعياً وبموافقة الأهل بل ومباركتهم أيضاً.

دارت بها الدنيا لأوّل مرة تسمع صراخ روحها،

وهى تموت وكأنها طائر تم ذبحه بسكين مشحوذة فصار ينتفض مما جرى له.

تتقلّب على جمر حبها الضائع وروحها الوليدة التى وئدت وهى ما زالت تحبو، تصرخ على موتها وهي على قيد الحياة.

وتذكّرت أحمد (طيف شجرة التوت) وتراءى لها بابتسامته ونظرته التى أحيت قلبها وروحها.

ظلّت غارقة فى هلاوسها جاحظة العينين، تنظر إلى اللاشئ تتمنى لو ذهبت الآن الى شجرة التوت، علّها تجد أحمد ليخبرها أن ما هى فيه كابوس وسينقضى، أو أنه لن يتركها ويدافع عنها، ولكن كيف يدافع عنها؟ وضد من؟ لقد ذبحها مجتمع لا يقيم لروحها قيمة، ولا يعترف بأنها إنسانة من حقها أن تختار وأن تتزوج بمن تريد؛ فالحبُّ عار في شريعة أهلها، وليس على المرأة أن تختار من تتزوج فهي لأبناء عمومتها وإلا وُصمت بالعار والخروج عن العرف والتقاليد، فمازالت المعتقدات القديمة تتحدى الحداثة وتفرض نفسها، كنوع من الحفاظ على الأصول وميراث الأجداد.ولكن ماذا تفعل؟ وكيف تفرغ هذا البركان الذي يعتمل داخلها؟

تذكرت أوراقها، فهرعت اليها لتكتب بمداد دموعها ما تختلج به هذه الأضلاع التي تضج بالألم، وبينما تمسك القلم إذ دخلت أمها، تكسو وجهها الظلمة، تستعصي الحروف عليها ودمعة مترقرقة فى عينيها، تشهد علي حزن وحسرة قد غرق بين أمواجهما القلب، تندّم نفسها على ما قالته لها بالأمس، لقد صورته لها وحشاً فكيف سترضاه زوجاً؟!

تنظر إليها مريم نظرة استجداء كيتيم قد حرم حضن أمه، تمالكت الأم نفسها ودخلت...

ترسم الأم ابتسامة كاذبة، تتقدم إليها ونظرة حانية تمتد لتربت علي قلبها، وتلامس بأطراف أناملها شعرها الحريري، مداعبة إياها ثم تتمتم ورعشة تعتري شفتيها قائلة:

هل تحدّثت مع سالم؟ هل أخبرك بطلب حامد؟ قال لي أنه حدثك بينما كنت نائمة، لم أكن أعلم أنّك صرت عروساً، كلمات متعاقبة تنطقها الأم وكأنها آلة، تنظر إلى ابنتها تنتظر أن تتكلم لتعرف ماذا ستفعل؟

ولكن أين مريم؟ ها هي ذي جسد علي الفراش. قد كتبت شهادة وفاته، يعتصره الحزن وروح، تكاد تزهق من هول ما تسمع، صرخات دون صوت، قسمات تنطق، دون حروف تساؤلات تنطق داخلها

هي في عالم آخر تتساءل كيف السبيل إلي ذلك؟! لقد وهبت روحي طواعية، لم تعد ملكي حتى لو أردت، ماذا سيتزوج؟! جسد ميت أهذا ما تريدون؟! صمت ناطق، وكلمات دون أبجدية ولسان قد عقد بناصيته القهر.

لم تنطق مريم بكلمة رغم محاولات أمها أن تستنطقها، وهاهي ترتجف، وأمها يكاد قلبها يتمزق عليها، فقد شعرت مريم برعدة تسري فى أوصالها وكأنّ روحها تسحب منها.

مازالت أمها تُحدّثها قائلة:

أرجوك يا ابنتي تحدثي إليّ، أعلم صعوبة ما تمرّين به ولكن لا حيلة لنا ولا مهرب.

أخيراً جمعت مريم حروفها الهاربة، واستعادت أنفاسها المسلوبة، ونظرت لأمها بعيون قد تحجرت فيها الدموع.

عجزت أن تتمخّض من رحمها دمعة، تطفئ هذه النار المشتعلة داخلها.

_ لن أتزوجه يا أمي لا أستطيع، أتريدين قتلي؟ أهانت عليك مريمك؟ الموت أهون اقتليني، أفضل من هذا الجحيم.

_ وكيف أقتلك وأنت نفسي، قطعة مني، بل أنت أنا يا مريمتي، لم أقل لك أحبك بلساني، لم نتعود علي البوح، فكثيراً ما ننسى أن نبوح، نتغافل، أو تأخذنا الحياة، نؤجل الكثير من مشاعرنا دون بوح، وعندما نفطن، يكون قطار البوح قد ترك محطته وأخذ معه الحروف بلا رجعة، ولكنك روحي، صغيرتي، وحبة قلبي، وفاكهتي الجميلة، رغماً عني يا كل نفسي، ليتني أستطيع، فهذه عاداتنا يا ابنتي، ولن تكوني إلا لابن عمك، هذه أعرافنا، وقد طلبك ووافق أخوك و لا رجعة في ذلك، ارحمي ضعف أم، لا تملك من نفسها شيئاً.

اسمعيني حبيبتي، مازلت صغيرة ولا تعرفين ما يحدث؛ نحن النساء يا ابنتي في هذا المجتمع، تعلّمت مثلك، ولكن لم أكمل خمسة عشر عاماً حتي تزوجت أباك، ونسيت نفسي في أحضانكم، ستعتادين الأمر، أعلم مدى قسوته، فقد عشته من قبل، ولكن سيهون عندما ترزقين بأولاد تحتضنين بهم الحياة، سيصيرون نوراً لعينيك، وهدفاً لحياتك.

_وبعد ذلك، أُنجب بنتاً، وأتحسر على نفسي وعليها عندما تُغتال براءتها وتُلقى دون إرادة منها في يد زوج يتحكم بها، أتريدينني نسخة منك يا أمي، أنت تاجاً لرأسي، ولكني أريد حياة أخرى، لا أريد أن أكون امتداداً لأحد.

_ هذا أمر الله، فالزواج نصيب كما تعلمين فارضي بقسمتك ونصيبك، يعلم الله أنني كنت أتمنى زوجاً ترضينه ولكن ماذا نفعل يا ابنتي، فنحن هنا لانملك حريتنا.

_ أي نصيب ؟ إنّه حكم أخي، ومن سبقه من آبائه وأجداده.

الله لا يرضى بهذا الظلم، الشرع يقول لابد أن يؤخذ رأي البنت، وأنا لا أوافق، لا أريده، الموت أهون من هذه الحياة.

أعلم أنه لو كان أبي بيننا الآن لما رضى بهذا ولو خالف عائلته.

_أباك ومن مثله يا ابنتي لقد ذهب الخير معه صرنا لقماً سائغة لأخيك، ولو عارضناه لصرخ وتجمع الناس وأنا لا أريد أن يُقال أن بيت الشيخ سلمان قد تفكّك بعد رحيله.

نار أفعال سالم أهون من العار الذي سيصيبنا من حديث الناس عنا وجعلنا مائدة لغيبتهم.

_ ولكن هذا ظلم يا أمي لايرضاه الله ولن أتزوجه ولو قُتلت.

_اهدئي حبيبتي، فقد قضي الأمر ولا يوجد شيء يمكن أن يغير كلمة قد قطعها أخوك . تعلمين ذلك جيداً ولكنك عنيدة وتكابرين.

هو زوج كأي زوج فالرجال سواء قد تختلف أشكالهم وبعض طباعهم ولكن لا فرق بين أحد منهم وآخر...

خرجت الأم، أمّا مريم فألقت بنفسها على وسادتها وأغرقتها بالبكاء،وباتت ليلتها تنزف دموعاً، وتتمنى أن ينزل دمها مع الدموع؛ لتنتهي حياتها بدلاً من زواجها من هذا القاسي المتحجر القلب الذي لا تطيق نظرته إليها، فكيف ستطيق لمسته لها؟ ومضت ليلتها على هذا الحال.

بعد أن كانت تنتظر الصباح، تتمنى أن لا يطلع عليها صباح ليطالعها وجه حامد وحكم عليها بالإعدام زواجاً.

الفصل الخامس

"عندما تُلقى الروح في جُب الوجع، تلتهمها الصرخات ويقتات عليها الحزن ينطفئ عمر الإنسان، لا يستطيع شيء أن ينير دجته"

على فراش الوجع...

يومٌ غائم فلم تطلع الشمس بوجهها البشوش خجلت أن تبتسم ثناياها، فغطت وجهها بغلالة رمادية، وكأنّها تشاطر مريم حزنها، تتوسط كبد السماء لترسل خيوطها الذهبية؛ لتنفذ من نافذة مريم لتداعب عينيها.

فالحياة تسير وفق ناموس لا يتغير أو يتوقف لحزن أحد أو حتي لموته، ولكنه الشعور هو الذي يجعلنا نرى بعيون قلوبنا فقد تظلم في وجه الشمس وقد تسطع نوراً في ليلٍ داج بلا قمر

العصافير تشقشق على الشجر ولكن عصفور مريم قد غاب عنها ربما غادرها أو مات كمداً.

شقّت مريم جفونها المتورمة بكاء، فقد أرغمها الوجع والذبول على معاقرة النوم غصباً.

تحاملت مُترنّحة لتغادر الفراش فلم تعتد على الكسل، توضّأت وقامت لصلاة الصبح عل دعوة في سجود تزيل هذا الكابوس الجاثم فوق صدرها، ثم قامت بارتداء ملابس المدرسة. تترنّح فقد أسكرها النحيب، وبينما تتوجه لباب البيت تهمّ بالخروج، ناداها سالم بصوته الجهوري قائلاً:

مريم ،يا مريم...

استفاقت من غفلتها، ونفضت عن وجهها غبار الحزن، كي لا تسمع منه ما لا يسر خاطرها

خرج منها الكلام ثقيلاً كأنّه مخدر، ولبّت نداءه قائلة:

نعم يا أخي

ثم توجّهت إلى حيث يجلس ممدداً على أريكة في حجرة المجلس التي كانت لأبيه، يرتدي جلباباً رمادياً، وقد أمسك خرطوم أرجيلته، يدخن منها ويزفر حتى تكونت غيمة كبيرة حول وجهه، وبدا جو الحجرة خانق.

وقفت أمامه، تشيح بيدها لتبعد الدخان الذي بدأ يخترق حنجرتها ويصل لرئتيها فتسعل واضعة قبضة يدها أمام فمها.

اعتدل جالساً وألقى بخرطوم الأرجيلة، يبعد الدخان عن وجهه بيده حتى يراها بعيونٍ ذابلة تستجدي قلبه؛ علّه يشعر بما في قلبها، فيتراجع عن قراره، فهي لا قدرة لها على مواجهته.

_ ماذا هناك يا أخي ؟

_أين أنت ذاهبة ؟

_إلى المدرسة ككل يوم، وهل لي غيرها أخرج إليه ؟!

_لا تتعبي نفسك لم يعد هناك داعي للدراسة بعد الآن.

_ماذا تقول ياسالم ؟

_أنت في الثانوية، وهذا قدر لم تصل إليه أختاك أو أي من بنات العائلة.

فالبنت للبيت، والزواج كما تعلمين.

_ولكن يا أخي أبي (رحمة الله عليه) كان يشجعني على إتمام تعليمي ولو كان بيننا لما رضي بذلك.

_أبوك قد مات، وأنا الذي أدير هذا البيت من بعده وأعلم صالحك جيداً.

وقد اتفقت مع ابن عمك على الزواج، فكفاك جدلا وكلاماً لا طائل منه،ثم كيف تذهبين للمدرسة وأنت مخطوبة؟! ماذا سيقول خطيبك؟ ونظرة الناس فاذهبي لغرفتك الآن ولا تثيري غضبي.

_ ولكن يا أخي كيف أترك دراستي وباقي على الامتحانات شهور قلائل، فإن كنت مصراً على زواجي منه، فلينتظرني حتى أنهي تعليمي.

_ماذا تقولين؟ ينتظرك، ماهذا الذي تقولين؟ البنت للزواج ومادامت خطبت فلتلزم بيتها وتنتظر يوم زفافها إلى بيتها الجديد.

_وهل أنا دمية تحركها كيف تشاء، أنا من ستتزوج وأنا من ستترك كل ما تحب خلفها من أجل زواج لا ترضاه...

احمرّ وجه حامد وتطاير الشرر من عينيه، وتوجه إليها قائلاً:

ما هذا الذي تقولينه: ماهذه اللغة؟ هل علمتك المدرسة أن تتحدثي مع أخيك وولّى أمرك

بهذا الشكل.

_ أنت من أرغمتني، وأن أصررت على ما تقول فلن أأنفذ فالمدرسة هي حياتي.

انتفخت أوداجه، ولم يسيطر على نفسه فرفع كفه الغليظ، ونزل به على صفحة وجهها

فاهتزّ جسدها كله ثم أمسك ذراعيها، وهزّها بعنف ودموعها تتساقط من ألم الصفعة وقال صارخا يتطاير الرذاذ من فمه:

_لن تذهبي للمدرسة بعد اليوم ستمكثين في البيت لتتعلمي من أمك، كيف تكونين زوجة، وتستعدي لزواجك، هل فهمت؟ ثم طرحها أرضاً فصدرت منها أهة مكتومة فلو سمعتها أمها أو رأت ما فعله سالم سيتأثر قلبها المريض وتعرضها للخطر.

قامت تلملم كتبها التي تناثرت من أثر وقوعها وتمسح دموعها بطرف كمها.

حدجها سالم بنظرة جمّدت الدم في عروقها بعد أن عاد يقف أمامها ثم قال صارخاً:

اذهبي من وجهي الآن ولا أريد أن أراك أو أسمع صوتك إلا وأنت تخرجين من هنا لبيت زوجك أفهمت ما أقول؟ اغربي عن وجهي؛ فقد دللك أبوك كثيراً، فنسيت كيف تتحدثين مع أخيك الأكبر.

وقفت ترتجف، تضم كتبها لصدرها فتغسلها بدموعها، همّت شفتاها أن تنطقا ولكن شيء ما ألجمها فتقافزت نبضات قلبها وطأطأت رأسها مذعنة، ثم انصرفت لا تألوا على شيء، فقد تسرب كل شيء كالماء من بين أصابعها، وكأنّها قد أخذت من خدر النوم إلى صحراء شمسها لافحة، مثقلة الجفون، تسير ذاهلة بلا هدى، تسير في طريق بلا نهاية...

تجرّ قدميها متجهة لحجرتها يصطدم كتفها بأمها فلا تلتفت إليها وهي تنادي عليها وتسألها:

ماذا بك يا مريم؟ فتكمل سيرها تتبعها أمها تنظر في وجهها وتسألها مرة أخرى: ماذا حدث مع أخيك؟

تنحلّ عقدة اللسان فتتمتم بصوت خفيض قائلة:

ماذا أقول ؟ أهذا أخي ؟! وتجيب نفسها نعم هذا هو سالم فلم العجب إذن ؟!

لقد كان أبي هو الوحيد الذي يردعه وقد مات أبي، فليفعل ماشاء فقد ورثنا قسوته مع ثروة أبي التي وضع يده عليها كلها، ولكن أليس هناك حل لذلك ؟! هل سأحرم من دراستي ؟ أهذه هي النهاية ؟

_ماذا حدث ؟ هل آذاك ؟ قولي لي .

_منعني من الدراسة، وقرر أن يزوجني لحامد

_لا تحزني حبيبتي، يمكنك فعل ذلك بعد الزواج

_أين أنت يا أبي ؟ ليتك بجواري، أهذه هي الحياة وقد جملتها لي ؟!، أم أن كل الخير ذهب معك ؟

_نعم يا ابنتي تغيّرت الحياة كثيراً مذ وفاة أبيك ومن قبله صابر، صار سالم وحشاً، لم يعد حتى يأتيني كما كان يفعل سابقاً، صار كل علاقته بالبيت المجلس ثم يذهب لبيته وقد طلبت منه أن يعود للحياة هنا فرفض، فرض سطوته على كل شيء، وأخويك ضعيفين، أخاف عليهما من شيطانه فاهدأي حبيبتي وسيجعل الله فيها فرجاً.

ينفرط عنقود الدموع من عيني مريم، وتحتضن أمها وتقول:

- صرنا بلاسند يا أمي لم يحسب أبي حساب هذا اليوم تركنا لقمة سائغة لسالم...

= لا تبكي حبيبتي حياتي فداء لدموعك

ربتت الأم على ظهرها وقالت:

نعم يا ابنتي صرت أخاف من الأيام، ومن غدرها ولا أعرف ما تخبئه.

مريمة، لا تحزني يا ابنتي، سيعوضك الله كما عوضني فيك وفي أخوتك، امسحي الحزن عن وجهك، حتى لا يفطن أخوك، ودعي الأمر لله.

_أتعلمين بكم يكبرني يا أمي؟!، إنني في عمر تبنته، لو تزوج من زمن لأنجب ابنة في مثل سني، أنت أدرى الناس به يا أماه، تعلمون أنه شخص سيء وقاس، ومع ذلك وافقتم عليه.

_أعلم، ولم أوافق فلم يسألني أخوك رأيي، هنا الرجل لا يعيبه شيء، مادام يملك مالاً وعملاً ينفق به على زوجته وأهل بيته، ثم إنّ قسوته وطيشه قد ذهبا، فقد تغير وصار صاحب مال ووجاهة...

_أمي إنه حامد! هل حقاً لايعيبه شيء؟!

_أعلم يا ابنتي ولكن هذا ما نقوله نحن وللناس الظاهر، فقد عاد مختلفاً في شكله ومظهره والناس لها المظهر وقد أغرى أخاك بكثرة المال الذي جلبه...

_مال! وهل ينقصني أو ينقص سالم مالاً، هذا الطماع ألم يكفه أنّ مال أبي كله تحت يديه ظلماً واقتداراً.

_تعرفين أخاك جيداً، ولابد أن نقول سمعاً وطاعة حتى لا نصير مسار أحاديث الناس عن بيت الحاج سلمان الذي صار متفرقاً متشاحناً بعد وفاته، بعد أن كان في سلام واستقرار.

_نعم أعرفه للأسف ينتظر أي مناسبة ليظهر أنه السيد والآمر الناهي هنا.

_أرجوك يا ابنتي، ارضي بما قسمه الله، ولا تكسري كلمة أخيك، لو اعترضت فلن يغفر لك ولا لي، سأُعيّر بتربيتي لك، وسنهان أنا وأنت، وليت ذلك يفيد، ستتزوجينه رغماً عنك فبمجرد أن طلبك ووافق أخوك، فقد صار زوجك، لا مفر. واعلمي أنه بالعشرة كل شيء يهون ستعتادينه، كما اعتدت أباك.

تتحدّث الأم ومريم كعصفور فوق صفيح ساخن، دموع مسفوحة، عقل شارد، قلب قد تمزق، ولسان يهذي، فلابد أن يتوه العقل ويصير الكلام أعجمياً إذا غاب المنطق ؟!

وأي منطق في أن تزوج فتاة دون رضاها! تُقاد كمسجون قد حكم عليه بالإعدام في جريمة لم يرتكبها.

توأد دون جريرة.

تأخذ الأم مريم في حضنها فتنهار، تتمنى أن تعاد إلى رحمها، فتجهض ولا تأتي إلي هذه الحياة ، وأي حياة هذهرالتي تنتقل البنت فيها من قبضة أهلها إلي قبضة رجل آخر لا تعرفه ولا ترضاه زوجاً.

تربت الأم علي ظهرها، وتهدهدها كطفلة في حجرها، وكيف لا... أليست طفلة ؟! فلم يتعد عمرها الثامنة عشرة من العمر.

خرجت الأم من غرفة مريم وتركتها.

صراع يموج في رأسها، وحروف كثيرة تتسور شفتيها ثم ما تلبث أن تنتحر، دون أن تنبس ببنت شفة.

تمنّت أن تنطق، أن تصرخ وتقول: لا أريده، إنه يكبرنى بعشرين عاماً، لا أحبه...

لا أطيق فكرة أن أكون معه فى مكان واحد.

فكيف أكون زوجته ؟!

بل إنها فكّرت أن تقول لأخيها:

أنّ هناك من يحبها وتحبه، وأنه سوف يأتي مع أبيه ليخطبها ولو كلّفها الأمر روحها.

هى تعرف أن سالم سيقتلها، لقد لطم وجهها لمجرد كلمة، فماذا لو أخبرته بذلك ؟

لن يسمح لها بأن تخرج عن تقاليدهم مهما حدث.

صارت حياتها في يد سالم ومنه سيتسلمها حامد.

لم تستطع أن تحتمل فارقها النوم وصارت تتقلب على جمر، فإذا غفت قامت فزعة وهي ترى نفسها وسالم يدفعها لتقع في أحضان حامد، عافتها الراحة...

لا تُراها جالسة بل تدور كفراشة قد أُحرقت أجنحتها، فلا تستطيع فراراً منها ولا تستطيع أن تستقر .

كتبت شهادة وفاتها فلم يبق لها سوى أن تقبر ويُهال عليها التراب.

تذكّرت أبيها وأنّه لو كان على قيد الحياة فلن يختلف الأمر كثيراً، قد يترفق بها فهي ابنته الأريبة ولكنه كان سيرضخ للعرف والتقاليد فهي سيف لابد أن يسير على عنقه أولاً.

تسير القرية كلها على التقاليد والأعراف التي كان ينفذها على الكل، ولن يسمح أن تنتهك في بيته ولو كان من فعل هذا هي فلذة كبده وابنته الحبيبة لقلبه.

استدارت برأسها ناحية الباب تزمع أن تخرج لسالم مرة أخرى فليقتلها إن أراد...

أوليس الموت أهون من حياة بلا روح ؟!

أليس ما يقومون به هو وأد بطريقة أخرى ؟

لماذا تتزوج من ليس كفء بها ؟، من لا ترضيه زوجاً.

ولكنها تراجعت عندما رأته يصرخ في أخويها

عاطف وحسن ويتركهما ويغادر البيت وهما يجلسان لا حول لهما ولا قوة، فلا دخل لهما بأي مما يفعله سالم، هكذا قال لهم وما يريدونه من مال سينالونه، وهما لا قبل لهما بمجابهة سالم بعد هذا التحول الذي صار عليه، فهو يتعامل مع الكل على أنه فرعون وليس لأحد عليه سلطة.

تعبت مريم من تلك النار التي شبّت في روحها، أشفق عليها النوم فاختطفها دون أن تشعر ودموعها تعانق خديها.

يوم جديد قد سقط في جب الحلكة دون موعد لشروق الشمس.

تمر سناء كعادتها لتصطحب مريم للمدرسة، فأخبرتها أمها بالخبر السيء الذي جاء لطمة على خدها، لم تنطق سناء ولكن مسحة سواد غطت وجهها، وسهم سدّد ليغرس في قلبها.

ففي لحظة، أعتمت الدنيا ومازال النهار بكراً، تعرف سناء أن هذا الطلب والموافقة عليه سيف على رقبة أي بنت في سن الزواج ولا مجال للاعتراض.

مضت دون هدى، وكأنها هي من حُرمت من المدرسة، نعم لقد حرمت من رفيقة دربها وصديقة عمرها، ليس من المدرسة فقط، بل أنها ستتركها وتسافر، سارت سناء في طريقها للمدرسة ودموعها تصاحبها، لم تفطن إلا عندما ظهرت شجرة التوت، تذكرت أحمد، وكيف اتصل بها بالأمس لتخبر مريم أنّ أباه وافق وسوف يحضران في نهاية الأسبوع.

تُرى ماذا سيفعل عندما يعلم؟ وبأي لسان ستخبره، إنها لن تستطيع، لن يطاوعها قلبها. وظلّت طوال اليوم شاردة تعصف بها الأفكار.

بعد صلاة العشاء أرادت سناء أن ترى مريم ورغم اعتراض أمها لأنها ترى أن بيت مريم لم يعد كما كان عندما كان والد مريم مازال على قيد الحياة، فقد صار مشاعاً لشلة سالم الفاسدة التي لم تظهر إلا بعد وفاة أبيه، أناس ليسوا من البلدة أشكالهم مريبة ونظراتهم متلصّصة.

ومع إصرار سناء وافقت الأم على أن تعود سناء بسرعة، فاتجهت لبيت مريم، طرقت الباب. قامت الأم لتفتح لها الباب وأدخلتها إلي حجرة مريم، فوجدتها نائمة ودموع تذرف من عينيها.

جلست بجوارها، وانحنت لتطبع قبلة وتمسح بيدها دمعة قد انحدرت علي خدها الجميل.

فطنت مريم لوجود سناء، فقامت واعتدلت في جلستها وسناء بجوارها.

أخبرتها مريم بما جرى، وعبراتها تكاد تزهق روحها وسناء تحتضنها وتبكى معها.

استدارت مريم وقالت:

_سناء، أحمد.

_لا أعرف ماذا سيحدث له؟

ولا أعرف ماذا أخبره؟ إنه يتصل كل يوم ليطمئن أنك بخير، هو يعلم أن أخاك يمنع استخدام التليفون في البيت، فكنت أخبره عنك أولاً بأول، الآن ماذا أقول له؟!

مريم ليست لك، خطبها ابن عمها وستسافر معه إلى السعودية.

تتحدث بهذيان... كأنّه أصابها مسّ من جنون ومريم لا تملك إلا البكاء، وصورة أحمد حزيناً شاخصة أمامها.

_لابد أن تكلميه، لتودعيه، كيف يحرم منك دون أن يكون له حتى حق وداعك؟!

_ لا أستطيع أن أراه، وبأي وجه أقابله، كيف أراه منكسراً حزيناً وأنا السبب...

ليته لم يراني وليتني ما أحببته.

الحب حرام في شرعتنا، لم نُخلق لنحب، خلقنا لنكون ألعوبة تنتقل من يد الأب إلي يد الزوج.

وأردفت:

أبلغيه أنني أحبه، روحي عنده وجسدي يباع ويشتري، فأنا عبدة لقيم وتقاليد بالية، كسجن ذي أسوار عالية لايمكن اختراقها، لو كان بيدي ما اخترت إلا هو، ولكن ليس لي نصيب في السعادة.

غادرت سناء وتركتها تسبح فى دموعها.

فكان لزاماً عليها أن تخبر أحمد بما جرى.

من حقه أن يعلم.

ولكن كيف؟ أي جنون هذا؟ قلبان معلّقان على شجرة الحب وروحان قد اجتمعا، لماذا اجتمعا إذن؟ كيف سأخبره؟ إنّه ينتظر أن أبلغه بما قالته مريم، وأن أوصل إليه فرحها وانتظارها لهذا اليوم الذي تمنّاه ثلاثتنا، نعم تمنّيته معهما فقد عشت الحب بهما ولهما، عرفته وتذوقت حلاوته، وشعرت بنشوته من رقصة عيونهما وقت اللقاء، من رعشة يد مريم، وهذا الصقيع الذي يدبّ بيديها عندما تراه، وهذه الرجفة التي تهزني معها كلما اقتربت خطواتها من مكان وقوفه، هذا الوجوم الذي تسبح فيها وكأنها قد تخلّت عن جسدها وتركت روحها لتطير من جسدها لتعانقه، رقصها كطفلة بين يدي وهي تحكي عنه وهذه السعادة التي تغمرها لمجرد أن تحلم بأن تكون معه، وهو وهذه السعادة التي تلمع في عينيه، عند اللقاء وعينيه تحرسانها وهي تمضي، وتغير

شخصيته ومزاجه بعد أن عرفها، وخجله وهو يتكلم معي عنها، وكم يحبها وكم بحث عنها.

أسئلة تتساقط أمام قدميها فلا ترى لها طريقاً حتى وصلت بيتها.

استجمعت قوتها وتماسكت فلابد أن يعلم.

اتصلت به وأخبرته بما جرى، فضحك بصوت مرتفع قائلاً:

هذه لعبة، فلتلعبي غيرها يا سناء، هيا أخبريني بأخبار حبيبتي...

دمعت عينا سناء وتحشرج صوتها، فأحس أحمد أن هناك خطب ما، فبادرها قائلاً:

_ماذا بك يا سناء ؟!

حاولت أن تنطق، ولكن الحروف تغتالها عبرة، تنحر رقابها قبل أن يترجمها اللسان، وأحمد يلحّ في الطلب، صارخاً:

_سناء، أرجوك، أريد أن أطمئن، قولي أن ما ذكرتيه كان مزاحاً، انطقي يا سناء.

غالبت العبرات فخرجت كلماتها صرعى، ألقتها علي مسامع أحمد ليرتاح قائلة:

_مريم خطبت فعلاً لابن عمها وقد حدد الفرح بعد شهر، ومنعها أخوها من المدرسة.

_هذا جنون، متى وكيف حدث هذا، قولي أنك تهذين، نعم أنت تهذين يا سناء، أين كان ابن عمها ومتى خطبها، لم تخبرني مريم عنه.

_كان مسافراً وطلبها من أخوها ووافقت رغماً عنها.

ظلّ يصرخ بأي حق يرغمها أخوها علي الزواج ؟! إنها تحبني أنا ولن تقبل بغيري زوجاً. أي ظلم هذا ؟! ألا يعرف أنه بذلك يقتل شخصين ؟! هل يعلم أنه يقتلني ؟!

وسناء علي الجهة الأخرى تمسك التليفون، وهي تبكي وتنتفض كحمامة قد نحرت بسكين حادة، ثم أغلقت الخط.

ظلّت علي حالها تبكي صديقتها، أما أحمد فقد أجهش في البكاء وعلا صوته فسمعه أبوه ودخل عليه، وهو يجلس على فراشه مُنكّس الرأس يدفنها بين كفيه، يربت على كتفه

_اهدأ يا بني لقد قضي الأمر وهي ليست من نصيبك، لابد أن تتقبّل الأمر، فلن يرجع أخوها فى كلمته فالكلمة فى الصعيد عقد.

فعندما أعطى أخوها كلمته صارت في عصمة رجل، ولا حيلة لنا في ذلك وتركه وغادر، أما أحمد، فنظر الي السماء، ليقول:

_ يارب منحتني حبها، فلماذا أخذوها مني، لقد وجدت روحي فيها، يارب ماذا أفعل ؟

خيّم الحزن على حجرة أحمد، وظلّ لا يرقأ له جفن

أيام وأيام...

تجلس مريم في حجرتها لا تبرحها تذبل كالوردة، ذهب رونقها وحمرة وجهها وكأنها شبح يسير على قدمين.

كل أهلها لاحظوا شحوبها ولكنهم كانوا يفسرون ذلك بأنها ما زالت صغيرة وخائفة من الزواج.

فهاهي حزينة، قد رسم حول عينيها دائرتان رماديتان، فقد أدمنت الدموع وأدمنها الأرق، فكيف تنام وهي مغصوبة.

قد أخذت أمها بيدها لتخرجها من غرفتها التي لم توافق أن تغادرها منذ خمسة أيام، ولم تسمح لنسمة هواء، أو بقعة ضوء أن تدخل إليها فقد حولتها إلى قبر، عزفت عن الطعام والكلام، فبكت أمها أمامها؛ فقد شعرت أن ابنتها تموت بالبطيء فأخرجتها إلى حيث مجلسها في ركن الورد حيث كانت تقضي معظم وقتها؛ لتستنشق بعض الهواء تمضي معها كظلّ لشجرة قد استقامت بلاحركة فلا ريح بهجة تحرك أغصانها ولا طيور راحة قد سكنت أعشاشها، تتحدث همساً وكأنّها تنزع الحروف من أحشائها.

حاولت أمها أن تحادثها ولكن دون جدوى، فقد مات الكلام في رحم الظلم.

ثم تعود إلى حجرتها، تنام منتفخة العينين، فلا تفارق مزن الدموع أحداقها، وما إن تلامس وسادتها حتى تندفق وكأنّها سيل يهمى، حتى إذا أخذها خدر النوم استسلمت له كغريق قد أشرف على الموت وتعلّق بطوق نجاة.

أما الأكل فكانت تلقي في جوفها بفتات منه، ما يقيم الأود ولولا الخوف من الله لامتنعت عنه، لم تكفّ الأم عن أن تراقبها، فتبكي حسرة ولكن أنّى لها أن تنقذها فقد سبق السيف العزل ولا راد لهذا القضاء الذي نزل بها.

كانت الوحيدة التي تعلم بمكنون صدرها.

يقولون أنّ السكوت للبنت علامة الرضا، فما علامة الحزن، ما علامة الحيرة وقلة الحيلة، ما علامة الاستسلام لقيد عرف أو قانون عائلة أو شرع قد شرعوه للبنت ولا استئناف فيه.

هل كل الكلام حروف، هل كل الصراخ ضجيج

هل اللسان هو الشيء الناطق فينا، وأين باقي الجسد، ما بالكم بعيون انطفأت ودموع انسكبت وجسد قد تململ في ردائه...

أنصتوا للغة الجسد إذا عيي اللسان أن ينطق

فكم من صرخات تشق الصدور وكلمات تنتحر على الشفاه فتدمي بقتلاها العيون وتذبل الوجوه.

يعانق أحمد وسادته، ثم ينشب أظافره فيها لم يتصور يوماً أن يكون مغلوباً على أمره لا يستطيع أن ينقذ حبيبته، يشعر بالخزي.

كيف يتركها تواجه مصيرا كهذا؟ هل يذهب لأخيها ولكن ماذا سيقول له: أنا أحب أختك... وهل يفهم مثل هذا في الحب؟ قد يقتلها لو علم أنه رآها؟ هل يخطبها؟ ولكن سيقول أنها مخطوبة لابن عمها.

إنه يسمعها تناديه كلما غفت عيناه، فهل يخذلها؟ ولكن كيف السبيل إليها؟ وهي هناك في سجن أخيها وسجن أعراف لا تعترف بالحب.

يشعرأحمد بأنّ الأرض تميد به، وهو يسمع صوتها من بعيد، تستنجد به، هو ينظر لها بعين العجز، تمد يديها إليه، فيتباعدان ثم تختفي وسط غلالة من الدخان...

أظلمت الدنيا من حوله والعالم فارغ إلا من روح تصرخ بداخله تنادى دون مجيب، وقلب كأن سهام الدنيا قد غرست فيه، فصار ينزف حتى تمزق أشلاء.

دمه يتساقط وكل قطرة تحمل اسمها، فقد تمكنت منه، كانت تسير بين أوردته، سقط على الأرض؛ فأسرع أبوه لإحضار الطبيب.

وهو غائب عن الحياة، ملقى كغريق قد تشبّعت رئتاه بماء الحسرة والحزن، يرتجف ويبكي، شخّص حالته، بأنه مصاب بحمى، فقد كانت حرارته مرتفعة، وجبينه ينبت عرقاً، لم يكن الطبيب يدري أنّه فقد روحه، وأنّ الحمى ما هى إلا نار تضطرم داخله كبركان، فقد فقد نصفه بل لقد فقد كله.

وأخذ يهذي باسمها، واستمر عشرة أيام في الفراش لا يقوى على الحراك.

اقترب الفرح واعتبرت مريم أنها ماتت وأنّ هذا الثوب الأبيض ما هو إلا كفن.

ولكن كلّما رأت (حامد) ورأت نظرته إليها تمنّت لو تصرخ فى وجهه وتقول له: لاأريدك، كم أكرهك أيها السارق ؟ سرقت فرحتي واغتصبت روحى، وسوف أُلقى إليك جسداً، أمّا روحي فقد فارقتنى حين فارقت روحى.

مضت الأيام العشر، بدأ أحمد يتمالك نفسه ولكنه يفترش الصمت يتطاير هشيم أضلاعه المحترق، في متاهة بلا مخرج، عينان زائغتان

وقلب كنائحة تندب ثكلاها، وسط هذا الكابوس، عقم البوح أن يتمخّض حروفاً، قد تنتشله من هذا التيه، أقدار تعانده، وأنّى له أن يواجهه فقد أطعمه الحب ثم حرمه، يتأمّل يداه المعقوفتان كغصني شجرة قد احترق جزعها.

يضرب بيده الحائط فيشعر أنه قد لان له، حتى الحجر يشعر بأنينه، أليس هناك من طريقة، ليردها إليه، فقد كانت نور الشمس الذى أضاء قلبه ثم تزاور عنه، رياحين الجنة التي نبتت من تبسمها، ونسمات الحب الصيفية التي أرطبت هاجرة الأيام.

وها هو يرد إلى جبّ بلا نهاية في صحراء مترامية الأطراف، ولن يمر سيارة ليدلو دلوهم لينتشلوه، ولا سبيل ليرى الشمس مرة أخرى

ينتفض وتندفق دموعه، يصرخ كأنّما لدغته أفعى سامة، وهل هناك ما هو أشد من لدغة الحرمان ممن نحب، كأنّما سقيت سُماً يمتص روحك رويداً رويداً حتى تخلو من نفسك دون أن يشعر بك أحد، كانتزاع الصوف من سفود الساخن.

ولكن هل سيبقى هكذا يتحسّر على حبه الضائع هل سيتركها تواجه مصيرها، دون أن تعلم بأنه معها، وحتى إن صار جسدها لغيره، فقلبها مازال ينبض بين ضلوعه وروحها مازالت تسكنه، تتقطع أوردته من هزيم صرخاتها.

سيذهب إليها، فقد يستطيع أن يملأ عينيه بنور وجهها ولو للمرة الأخيرة، حتى ولو كانت ستزف لغيره، فهو يعلم في قرارة نفسه أنه مأتمها وليس زفافها إذاً، فإن لم يستطيعا أن يكتملا بالزواج فلتعلم أنّ روحه ستصاحبها أينما ذهبت

فقرر أن يذهب لرؤيتها، حتى ولو قتلوه.

بعد الاتفاق على الزواج توطدت العلاقة بين حامد وسالم؛ فلا تنقضي ليلة دون أن يقضياها في سهر وسمر مع دخان الأرجيلة.

وتحوّل المجلس الذي كان كعبة يقصده الناس لقضاء حوائجهم، إلى مكان يضم سالم وأصدقاؤه وانضم إليهم حامد، لا يسمع الناس إلا قهقهاتهم ولا يرون إلا الدخان الأزرق المتصاعد. الذي يخرج من النوافذ ليزكم المارة فيترحمون على الشيخ سلمان وأيام كان لهذا البيت شأن آخر.

كان مكان المجلس منفصلاً عن البيت وذلك منذ أن كان الشيخ سلمان يقيم فيه جلساته مع المتخاصمين وأصحاب المظالم والحقوق، وبقى المكان ولكن تغير شكله ورواده.

كانت مريم ترى ما يحدث من خلف ستارة نافذتها التي تطل على الحديقه وعلى مرمى بصرها ترى المجلس ومن فيه.

في أحد الأيام كان سالم وحامد وحدهما، رأت مريم سالم يخرج من جيبه أوراقاً فيأخذها حامد يتفحّصها باسماً ويربت على كتف سالم ثم يدسّها في جيبه ويمضي.

تعجّبت مريم ما الذي يدور بين أخيها وحامد

ثم ما لبثت أن رأت لفافة يأخذها سالم ليدسها هو الآخر في جيبه.

لم تنم مريم تلك الليلة وهي تفكر ما الذي يدار في مجلس أبيها.

عندما أذن لصلاة الفجر، قامت من فراشها؛ صلّت ودعت ربها كثيراً أن يفرج كربها ثم توجهت إلى مكان المجلس، كان المكان يعج بالمأكولات والمشروبات وكأنه حفلاً قد أقيم فيها.

وأكثر من أرجيلة منصوبة في أرجائه، ثم لمحت صورة فوتوغرافية في المكان الذي كان يقف فيه سالم وحامد، انحنت لتلتقط الصورة

إنها تعرف هذه البنت التي في الصورة، إنها زينب ابنة الحاج رمضان فتاة جميلة تصغرها بثلاث سنوات كان أبوها أجيراً في أرضهم، كثيراً ما لعبت معها في صغرهما عندما كانت مريم تذهب بصحبة أبيها.

ولكن ما الذي جاء بتلك الصورة هنا في هذا المكان الذي يجمع بين اثنين هي تعلم جيداً أنهم لا يمنحون شيئاً إلا بمقابل، فماذا تملك زينب أو أبيها ليطمع فيه سالم ؟! الذي رغم ثرائه الفاحش إلا أنه لو وجد شيئاً في يد أجير له لآخذه دون أن يتعكر ضميره، فسبحان من جعل هذا الفاسد يأتي من صلب ذاك الصالح الذي مات وترك سيرة عطرة تفوح كل يوم وهو يذكر بالخير.

تمنّت مريم أن تعرف، فهل تسأل سالم ولكنه أرغمها ألا تريه وجهها إلا يوم زفافها ؟

أخذت الصورة ومضت، وانشغلت بعد ذلك مع أمها التي كانت تحضر لها الملابس ومايلزمها كعروس، لم تكن تطيق أن تلمس شيء من هذه الأشياء رغم حبها الشديد، لأن ترتدي أجمل الثياب وتتعطر بأرقى العطور.

كانوا قد قرروا تعجيل الفرح لأن حامد لابد أن يعود لمقر عمله.

وكان الأمر سيان بالنسبة لمريم، فقد تقرر وأدها ولن تستطيع المقاومة ستسير الى مصيرها المحتوم دون مقاومة، فمادام هذا قدرها، فالأمر لله، ولا راد لقضائه.

أرادت أن تزور شجرة التوت؛ لتترك ما بقى من روحها لديها، علّها تسكن أحمد عندما يزورها لتواسيه على فراقها، ذهبت إليها، فوجدت أحمد يقف تحتها، فهرولت لتحتمي به، وارتمت بين أحضانه.

استنشقت روحها من جديد، اضطربت رئتاها، وعلت أنفاسها، لتأخذ أكبر قد من الهواء المحمل بأنفاسه لتحيا بها.

تمنّت لو تحول حضنه إلى كهف أزلي، اختبأت فيه من مصيرها، ولكنها وجدت أنها تحتضن الطيف، فقد أخذها الشوق والحزن، إلى عالم من خيال، تستطيع فيه أن تتحد مع حبيبها، الذي شقّ غمام الغيم، ليسقط علي قلبها البض، قطرات من حبّ أحيت قلبها وأيقظته من سباته ولكن هاهي ذي، قد حرث الجهل والعادات أرضها قلبها، داست زهور حبها اليانعة ومعه زهرة شبابها وأنوثتها التي لم تتفتق إلا تحت جناح الحب، انكفأت تحت الشجرة، تنظر إلى مكان خطواته، والمكان الذي يستند عليه في الشجرة، ووجه الباسم يواسيها، فتشقّ ابتسامة حب حاجز حزنها، لتبادله حباً بحب.

هي تعلم بكل خلجاتها أنّه يُحبها، وهي أيضاً لا ترى الحياة إلا معه، تاقت للحياة، ووجدتها في حبه، يقف صامتاً، يداري عينيه عنها، تبتعد، يمزق نياط قلبها يلقيها القدر لحياة خالية من الحياة، إنها تريده هو، فلم تشعر بالحياة إلا معه، حانت لحظة المغادرة، ينظر إليها وهي تشاهد لمعه تظهر في عينيه، ماهي إلا دمعة تسترق النظر إليها، تستجديها لتبقى، يربت على كفّها، و مازالت ممسكاً بأحد أصابعها، ترتجف، ماهذا الظلم، ولماذا تريد الحياة أن تفصلها عنه، تتشبث بيده وتهزه بشده، يلتفت ليجد دموعا تكسو وجهها، تردد: أحبك،ينظر اليها ويتمتم: أحبك.

تترنّم ببعض مما يصدح به قلبها البكر نبضات سالت علي شفتيها، فخرجت على هيئة حروف تشدو بها قائلة:

وأنت الحب يا أحمد

فداك الروح ياعمري

أحبك ما علت شمس

ومادامت الأنفاس في صدري

هي العادات يابعضي

فلا تحزن ولا تقل أخلفت وعدي

هي العادات لا ترحم

فكم قتلت من العشاق من قبلي

فداك الروح ياكلي

فبالله التمس عذري

هكذا الفراق... تتفرق الأجساد ومازالت الأرواح متشابكة، تتعانق، تنزف وجعاً تمنت أن تكتمل أن تضم هذه الأجساد الغريبة، التي تترنح في ثمالة، عيون قد غشيتها الدموع وصدور يسكنها شبح لقلوب قد جنت، بعدما بتر نصفها

انخفض النبض في صدرها، وتعالت شهقات الحزن.

تفتح عينيها، لا يوجد سواها، فما كان هذا سوى حلم يقظة، تشعر أنّ عليها أن تواسيه، ولكن حتى الوداع قد حُرمت منه، تلاشى الطيف وبقى الحزن يخيم على المكان، وكأن الكون يشاركها حزنها، جلست قليلاً، وأسندت رأسها لجذع الشجرة.

وأغمضت عينيها، وتذكّرت أحمد وكيف التقت به؟ ولد حبهما عملاقاً، كأنها ولدت لتحبه أو كأنها أحبته منذ ولادتها.

لم تشعر إلا وسناء تربت على كتفها وتناديها:

مريم، مريم.

حبيبتي، حدّثني قلبي أني سأجدك هنا، لهذا أتيت من هذا الطريق.

وأردفت: هيا حبيبتي سأذهب معك إلى البيت، وقالت تمازحها، وهي تخفي دمعة قد رقّت لحالها: أنا أخت العروسة، ألست أختك يا مريمة، أنت أختي الجميلة، وأنا أختك السمينة، وضحكت واستمالت برأسها لتضعها علي كتف مريم، ولكن مريم، في حال آخر، أطبق الحزن عليها ولاكها بين فكيه، فصارت روحها أشلاء، كيف تبتسم، وقلبها ينزف.

أحاطتها سناء بذراعها، وضمّتها إليها ومضيا وكأنّ علي رؤوسهما الطير، تنظر مريم إلى الأشجار، التي كانت ترى أوراقها تتراقص وقد خيم عليها شبح الموت، جو خانق، وحر شديد، وكأنّ السماء حزينة عليها.

تحاملت تتوكأ على سناء حتي وصلت للبيت وقد بدت كعجوز من الحزن والبكاء.

دخلت معها سناء إلى حجرتها، بعد أن مرّا على والدة مريم، وألقت عليها سناء السلام، والأم تتابع ابنتها، وهي شبح، قد فقد روحه.

جلسا علي السرير، أمسكت سناء كلتي يدي مريم، احتضنتهما بين كفيها، ونظرت لعينيها الجامدتين، وقالت:

_حبيبتي، هوّني على نفسك، وكفاك، هذا حالنا جميعاً، الحمد لله أنه ليس لي أولاد أعمام، ولكن أعيش ما تعيشينه، فأنت توءم روحي، وأخت قلبي.

_هذا قدري وقد رضخت، لا حيلة لي، أدعو الله أن يصبرني، ويربط علي قلبي.

- ليس لنا ثمن يا أختاه، ويشهد الله أنني لن أسامح كل من زهق روح من أرواح البنات التي تساق كالأنعام إلي حياة مبهمة، مع شريك، قد أجبرت عليه، في مجتمعنا الروح والإحساس ليس لهما ثمن أو قيمة، نحن في زمن الأجساد، هي من يقام لها حساب، فاهدئي واربتي علي قلب روحك لتهدأ، فلعل الله يبدلنا خيراً على صبرنا.

الفصل السادس

"أيها الملتحف بالصمت، قد تزاورت عنك الشمس، واشتد صقيع يأسك ولكن يوماً ما ستولد من رحم اليأس حياة تجبر الشمس على البزوغ يوماً والاعتراف بك"

فرح ودموع...

أيام تمضي، تنهش نسيج روحها، وجسد منهك قد تدلّى على مشنقة الحزن بأقدام مقيدة تُساق إلى هوة على شفا جرف هار، تدفعها وجوه باسمة مهللة، عيون تلمع فيها نجوم الانتصار وأخرى تكاد تفقد نورها من نزف الدموع، تتكوّر مريم في ركن مظلم من فراشها، رأسها غرست بين ركبتيها تحتضنهما ذراعيها، وطنين يكاد يذهب عقلها، أصوات تتعانق وصور تتنافر وتتجاذب، أحمد ،سالم، حامد، سناء، وجوههم تطاردها وأصواتهم كأجراس تدق على جدار روحها صراع يودي بها إلى الجنون .تضرب رأسها يكفيها عل هذا الضجيج يتوقف،ترتج رأسها وتتداعى الدموع على أجفانها ثم تنهال على خديها، تتزايد عبراتها وتتعالى، تدخل الأم مسرعة بعد أن سمعت نشيجها.

تتحسس قابس الإضاءة، الحجرة مظلمة تماماً تهرول إلى ابنتها وتقفز على فراشها متناسية مرض قلبها بصوت ملهوف تناديها، وتربت على رأسها المكشوف حيث يبدو شعرها الغير مشذب متناثراً على كتفيها منكّس الرأس باهت اللون

مازالت الأم تتحسس رأسها بحنو قائلة:

مابك حبيبتي؟ ماذا تفعلين ذلك بنفسك؟ هوّني عليك يا قرة العين.

يزداد صوت البكاء فيهتز بهما الفراش من قوة ارتجاف جسدها.

فتضيف الأم ودموعها منهمرة،

_أتريدين قتل نفسك، ألا تعرفين أن روحي

معلقة بك، أتريدين أن أموت حسرة عليك؟

ترفع مريم رأسها وقد تورمت عيناها واحمرت أجفانها وأنفها من كثرة البكاء، تحاول أن تتكلم تبتلع العبرات الحروف فتختنق بها، تربت الأم عليها قائلة:

تنفسي حبيبتي، واهدئي.

تحاول مريم أن ترضي أمها فتتنفس الهواء بقوة كمن يختنق ويحاول أن يأخذ أكبر قدر منه

تحاول الأم أن ترسم على شفتيها إبتسامة وتقول:

لا تعصري روحك حبيبتي وارضي فهذا قدر الله وتذكري قوله تعالى

(وعسى أن تكرهوا شيئا. وهو خير لكم)

لن يغير ما تفعلينه شيئاً، ستموت روحك وتعانين طيلة حياتك.

_وهل مازال في الروح رمق يا أمي مات أبي فاهتزت الأرض تحت قدمي ورحل جزء من روحي برحيله ومات صابر؛ فابتلعتني دوامة من الحزن تركت شرخاً في أضلعي ورغم ذلك لم أشعر باليتم إلا الآن، كنت أحيا في كنف أبي حتى بعد رحيله، ثم يأتي أخي لأعرف أنني صرت يتيمة.

_أبكيتني يا مريم وضغطت على جرح لن يندمل أبداً، أشعر بنفس شعورك، فقد فقدت سندي في الحياة وفلذة كبدي، ولكن ماذا نفعل بنيتي، هي الحياة ولم نخلق لننعم، فهي دار ابتلاء، قال تعالى(لقد خلقنا الإنسان في كبد) صدق الله العظيم.

_ولكن لا يرضى الله بالظلم والقهر

_نعم، لايرضاه ولكن ليس لنا أن نعترض، لن نستطيع أن نخرج عن عرفنا وتقاليدنا.

_أعرف أمي فقد ولدت فيها وأعلم كل ذلك اعتقدتُ أنني سأنفذ من عنق الزجاجة، ولن يصيبني ما أصاب غيري من فتيات، نسيت كل هذا وعشت على أنّي حرة بلاقيود ولا أغلال. ظننتُ وكان بعض ظني إثماً، تعاقب عليه روحي التي تركتها تحلق في السماء، وتبين أن هناك حجراً ضخماً معلقاً بقدميها فما إن ابتعدت حتى ارتدت حسيرة إلى الأرض.

_لله الأمر يا ابنتي، وأنا بجوارك لن أتركك أبداً ولن أدع شيئاً يؤذيك؛ فقومي من فراشك، وانفضي عنك الحزن، فمن يتجرّعه لن يتركه ولاتنسي الاستغفار كثيراً؛ ليبعد الله عنك الكرب والحزن.

_حاضر سأفعل، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

_يااااارب، سأجهز الأكل لنأكل سوياً.

قامت مريم تترنّح فقد أفقدها البكاء وقلة ما تتناوله من طعام قوتها، وسبقت أمها إلى الباب

توضأت وصلت العشاء، وظلت تدعو وتبتهل لله أن يساعدها ويربط على قلبها خوفاً على أمها فقلبها ضعيف لا يحتمل.

بدأ الاستعداد للفرح، البيت يموج بمن فيه، من أقارب وأهل، حضرت أختاها منى وعلياء وأولادهما لحضور الزفاف.

الأفراح في الصعيد لها طقوس وخاصة أنّ بيت مريم و حامد متجاورين؛ فصارا كبيتٍ واحد عُلّقت الزينات على البيوت وفي الطرقات وأقيمت خيم كبيرة لإطعام الضيوف، ومُدّت الموائد التي سيأكل عليها المدعون، فالحاج سلمان كان له معارف وصلات كثيرة، فالناس كانت تحبه وقد جاملهم كثيراً، ويريدون أن يردوا شيئاً من أفضاله ورغم أنه قد مات إلا أن أثره الطيب باقٍ.

قام أخوتها وأولاد عمومتها برتيب كل شيء،

وتوافد المدعون يحملون الهدايا للعروسين.

امتدت الأفراح والاحتفالات أسبوع كامل، النساء يتوافدن إلى بيت مريم، لصنع الفايش والمنفوش والكعك للفرح.

النساء يغنين أغاني الأفراح، وتنطلق الزغاريد الأطفال يلعبون سعداء بهذا الجو الذي تنشغل فيه الأمهات فينالون حريتهم في اللعب ويأكلون ما يُقدم من طعام وحلويات في الفرح. جاء اليوم السابق لحنة العروس، وكان الاتفاق أن يُعقد االقران في دار مناسبات يسمونها الديوان، كان قد بناها وأشرف على تجهيزها الحاج سلمان، وقد بنيت بشكل رائع وفُرشت بأجود أنواع الفرش، والوسائد المخصصة للجلوس، يتدلّى من سقفها النجف، وقد ثُبتت المراوح على الجدران.

وأُلحق بها مبرداً للمياه وحجرة يوضع فيها أدوات الشاي والقهوة والمشروبات والحلويات للمدعوين والتي يقوم الشباب بتوزيعها.

بعد صلاة العصر اجتمع الرجال، وحضر المأذون يرافقه حامد، استقبلهم سالم والعمدة وأخواها عاطف وحسن، جلس الجمع وبدأ المأذون في كتابة العقد، ثم سأل من وكيل العروس فأجاب سالم:

أنا أخوها الكبير ووليها،

فقال المأذون: اذهب فأحضر موافتها .

فأشار سالم لأخيه الأصغر حسن ليأتي بموافقتها كما ينص الشرع.

هرع حسن إليها في بيت أبيها، فقد كان قريباً

دخل عليها غرفتها، وقد زينتها أختيها وصويحباتها.

كانت ترتدي عباءة زرقاء تشبه لون مياه البحر، ووجهها رغم ما تزينت به شاحباً وعيناها كسيرة.

وقف بجوارها مداعباً كعادته معها وابتسامة ساطعة تعلو محياه، سعيداً بزواج أخته التي يحبها كثيراً فداعبها قائلاً:

_ ماهذا الجمال يا مريم، وكأنّك حورية من الجنة، أرجو أن أجد من هي مثلك لأتزوجها، محظوظ حامد بك.

حبست دمعة كادت أن تفرّ من معقلها.

ابتسمت لأخيها، وهي تربت علي كفّ يده الذي يعلو كتفها وهي تجلس على كرسي أمام مرآتها وهو واقف خلفها متودداً.

_ سوف تجدها يا أخي، وأرجو الله أن يكون حظك أفضل من حظي، قبّلها علي رأسها

وأدار الكرسي لتكون أمامه وجهاً لوجه ثم انحنى عليها ليسألها قائلاً:

_هل توافقين حسب الشرع أن يكون حامد زوجاً لك، فطأطأت رأسها، وتمتمت:

_نعم أوافق، أن أكون له سبية.

انتبه أخوها لما تلفّظت به، وخاطبها متعجباً:

ماذا تقولين؟ سبية، لم ترفع رأسها وأكملت حديثها، بعد أن أسرع أخوها ليغلق الباب، خوفاً من أن يطلع أحد على ما تقول، وعاد ليقف أمامها، أمسك ذراعيها وأوقفها أمامه.

عندما تلاقت أعينهما انهارت باكية، احتضنها، فهي صغيرتهم المدللة، وهمس في أذنيها قائلاً:

_ماذا بك؟ وماذا الذي تقولينه؟ لقد لاحظت حزنك وأردت أن أكلمك أكثر من مرة، فكنت تشيحين بنظرك عني، اعتقدت أنّ سرحانك وحزنك بسبب فراقك لنا، لماذا لم تخبريني؟ مسحت دموعها وغادرت حضنه، نظرت إليه مشفقة عليه فهي فعلاً قد كتمت جرحها ولم تخبر أي من أخويها، فهي تعلم ما قد يحدث بينهم وبين سالم، لم تُرد أن يسمع الناس مشاجرات في بيت الحاج سلمان، ويتدخل الناس لفضّها، لاتريد أن تكون سبباً في عداء بين أخوتها، ولن تكون له نتيجة؛ فسوف تتزوج حامد وافق من وافق وأبى من أبى.

نزلت كلمات أخيها برداً وسلاماً على قلبها المحترق منحها قوة عجيبة، شعرت أنّها قوية، ولما لا؟ وقد وجدت من يفهمها ويريد لها الحياة، هناك من شعر بمأساتها، حتى لو تزوجت حامد الآن فهي راضية.

أحياناً نحتاج لمن يمد إلينا يديه ونحن نغرق. حتي وإن لم ينقذنا فيكفينا أنه كان حريصاً على إنقاذنا.

تماسكت، وبنظرة حب وعرفان حاولت أن تحجب دمعة أقسمت أن تنزل، تحاول أن تخفض صوتها فهي ابنة كبير البلدة فماذا سيحدث لو سمع أحد ما يدور بينها، فكثيراً ما تُدار أحاديث خلف الأبواب المغلقة.

وبصوتها الذي مزّقه الحزن أردفت:

لا عليك يا أخي، لم أرفض لأنني أعلم أنه لا فائدة من ذلك فلن يتغير شيء، ولو قلت لك ماذا كنت ستفعل؟ القيد لا يشملني وحدي فأنت أيضا مكبل، هي أقدار كُتبت علينا، ولا قدرة لنا على تغييرها ولو أردنا.

فكيف وأنا ابنة من كان يحمل شعلة العرف والتقاليد أخالف؛ فتُعيّروا بي، فأنا فداء لكم، يكفيني أن تعلم أني لا أريده، أنني قدمت روحي وقلبي وحياتي قرباناً كما تفعل الكثيرات هنا، فكم من روح أزهقت بدعوى العرف والتقاليد.

سأتزوج حامد، لكم وليس لي، فلا سلطة لي على نفسي، فليأخذني حامد، سبية أو أضحية، أما الزواج فله شكل آخر، اذهب إليهم يا أخي، أخبرهم أن ضحية أخرى من ضحايا قطار العادات والتقاليد قد وافقت علي سبيها، أو نحرها تحت تمثال العادات المقيت، أجوف القلب خالي الروح، لا أختلف كثيراً عن عرائس النيل، كانت تزف الفتاة قرباناً للنيل ليفيض الخير كما اعتقدوا قديماً.

وها نحن على نفس وثنيتهم وإن ارتدينا مسوح الرهبان وعمائم الشيوخ.

هي العادات دائماً وأبداً سكيناً ثلمة، تنحر بها أعناقنا.

ترقرقت دمعة في عين الأخ، فقد كان عاجزاً أمام دموعها، لم يكن يدرك أن أخته تحمل كل هذا داخلها ورغم حزنه فلا قبل لهم بالتراجع الآن، قبّل جبينها وشدّ علي كتفها ومضى ولكن ليس على نفس الحالة التي حضر بها، يشعر بالعجز والكره لكل من يرغم روحاً على أن تفعل مالا ترضاه، ولكن لا فائدة من أي قرار أو كلام

فقد سبق السيف العذل كما يقولون.

عُقد القران، وجاء حامد ليسلّم على عروسه

دخل عليها وبارك لها.

هنا أدركت أنها قد ذبحت فعلاً، وما عاد هناك أمل في الإنقاذ فسقطت روحها في جب اليأس.

استمر الفرح قائماً الشباب يرقصون، والفتيات يلازمن العروس، يرقصن ويحضرن لها ما يلزمها مع نساء العائلة.

في اليوم التالي أشرقت الشمس على يوم تفتحت فيه قلوب كالورود الندية وقلوب أخرى قد غشيها الحزن.

كانت مريم قد ذبلت تماماً، فقد عاف جسدها الطعام وكلما أرغموها، كان يأبى أن يستقر في معدتها فتتقيأه، وهكذا مرت عليها الأيام السابقة.

وصل أحمد إلى البلدة فوجد شكل مختلف للقرية.

لم يكن يعرف أنه تم تقديم موعد الفرح، أراد أن يقتنص فرصة لوداعها ولكن حتى هذا قد سرق منهما.

وصل لبيت عمته الذي كان يجاور بيت مريم.

رأى الزينات تعلو واجهة بيت عمته، وكل البيوت المجاورة لبيت مريم.

وقف واجماً لايدري ماذا يحدث ؟!

نساء يدخلن ويخرجن مسرعات يحملن أواني الطهي والأطفال في هرج ومرج شديد، تواتر إلى مسامعه قول أحدهم:

إنه فرح حامد وابنة الشيخ سلمان...

فغر فاهه، وجحظت عيناه وبدأت أنفاسه تعلو في صدره ودقات قلبه تتزايد، ثم خارت الأرض تحت قدميه.

كاد أن يغشى عليه، فرجع بظهره للخلف حتى اصطدم بالحائط فما زال ضعيفاً، وأثر الحمى لم يفارقه، تماسك حتى دخل إلى البيت، كانت سناء في الخارج فلمحته.

لم تكن تفارق مريم إلا لتحضر لها شيء يلزمها فأسرعت إليه، واستقبلته عمته، وأدخلته إلى حجرة الضيوف.

وعندما دخلت سناء صدمت عندما رأت شكله و هيئته، فبدا كأنه شبح يمشي على قدمين.

التقط أنفاسه بعد أن ناولته سناء كوباً من الماء ثم جلست تحكي له ما مرّت به مريم، وأنها لم تخدعه، أو تتخلّى عنه فهي تموت فى كل لحظة، وقد كتبت له كثير من الرسائل، فلم يمض يوم دون أن تخط له رسالة تبثه حبها وتواسيه على فراقها، ثم أسرعت لتحضر لها الرسائل علّها تُطفئ بعض لهيب قلبه.

فلم تكن مريم تملك إلا أوراقها لتبثها شوقها، وصراعها مع هذا الحنين الذي يفتت عضد قلبها

فتمسك بورقة وتسطر بنبضات إحساسها ما يعتريها، ويمزق نياط قلبها من شوق لتكون ذكرى لأحمد تأخذها إليه سناء فتقول:

وعندما أفتقدك، يتلوى قلبي شوقاً، تتصارع دقاته للبقاء على قيد الحياة، تتقافز لتبثك في شراييني، كيلا أشعر بألم فقدك، وشيئاً فشيئاً في صراعها للبقاء على روحي متماسكة، تسقط واحدة تلو الأخرى تقل النبضات، يتجمع القلب ويزوي ليلملم تشظيه، وكلما تكور على نفسه ازداد الألم، يعتصره الحنين ويرسل الروح لتتبع أثرك، تتشمم بقايا عطرك المنثور هناك في طرقات قد مشيناها سوياً، أجمع بعض ضحكات

قد تناثرت على شواطئ حبك المهجورة، وأثر خطواتك التي كانت وكأنّها يدٌ سحرية تعزف على أوتار قلبي، وكلما اقتربت ازدادت النغمات صخباً، وافترشت السعادة روضة روحي، ها هنا كنا نلهو وهنا جلسنا، وهناك تشابكت أيدينا فتماهت روحي في روحك وكأننا طرفين موصولين ببعضهما وقد سرت شرارة الروح عبر الأوردة لتتلاقى ونتبادل فتصير أنا وأصير أنت

مازلت أذكر حين كنت تناديني بأنا وأجيبك لبيك يا أناي، كم اشتقت إليك! أغوص في هذا البحر الهادئ بين جفنيك وأراني موشومة في مقلتيك، أبحر فيهما رغم أني لا أعرف العوم...

فمن قال أنني أريد النجاة، أعشق أن أغرق فيك أن يتلاشى كلي في كلك، فلا نتجزّأ، أعبر إليك لتبتلعني روحك لأخلق من جديد جنيناً قد نما في أحشائها، فأنا ابنة قلبك.

وأحملك جنيناً في حشى قلبي؛ فألدك إنساناً من رحم حبي، لتكون لي ابناً وحبيباً وزوجاً.

ولكن أيناك مني! وأي غربة لي في بعدك؟ أظلم النهار وعمّ الليل فصار سرمدياً، لا تستطيع كل أنوار العالم أن تقشعه، لأنّك نوري الغائب، قمر ظلمتي وسراج روحي الذي لايخبو...

فهل كُتب علينا البين، هل سنظل هكذا شطرين

مائلين قد تمزقا، لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر.

منسأته التي تتكئ عليها روحه، وإلا ستقع في أرض تبتلعها بلا فرصة للنجاة.

أشتاقك يا أنا رغم وجودك معي.

أشتاقك رغم أن فراقك وإن كتب علينا إلا أن ما جمعته الأرواح لا تفرقه الأماكن ولا تبعده المسافات.

أنتظرك كل يوم لترد إلي بعضاً مني قد فارقني،

أنتظرك لأكتمل.

فإن لم يكن مقدراً أن تتلاقى أجسادنا، فاذكرني عند قلبك، واعلم أنك له سلطاناً، وأن فراقنا وإن أرهق قلوبنا فستظلّ الأرواح معلقة على حائط الذكرى تتناجى وتتعانق، لتبثّ بعضاً من حياة لإعادة هذا الجزء المتهالك منها.

أرفق بنفسك واعلم أنك معي فلا سلطة لأحد على قلبي فهو لك وروحك عندك.

أحبك مادامت السموات والأرض

أحبك نبضاً وروحاً

أحبك غائبا وحاضراً

أحبك يا جنة قلبي وسؤدده...

فرت دمعة من عين أحمد لم يستطع كتمها فربتت سناء على كتفه قائلة:

يكفي هذه الرسالة لا أريدك أن تنهار، فأنا أريد أن أكون بجانبها.

ردّ عليها بعد أن مسح دمعته وقال:

اذهبي إليها فهي تحتاجك جداً، كوني يدي التي تربت على قلبها، ما أفظع إحساس العاجز عن نجدة من يحب، اذهبي يا سناء

_ سأذهب ولكن لا تدعها تراك؛رأخشى عليها ولا نعرف ماذا يمكن أن تفعل؟

وأُفضّل أن تسافر قبل موعد الزفة

فنظر إليها نظرة يملؤها الحزن وقال:

_ماذا تقولين يا سناء لست جباناً لأتركها تواجه هذا المصير وحدها، لابد أن تشعر بوجودي أعلم أنها ستشعر حتى بأنفاسي تطمئنها، وروحي تُحلق فوقها ثم تسكنها لتطمئن روحها.

_ولكن احرص ألّا تراك فهي كالزجاج المُهشّم الذي حاولنا تجميعه ولصقه، فلو رأتك ستتداعى ولن تستطيع التماسك.

_لا تخافي يا سناء لست طفلاً، وأعلم لم فعلت مريم هذا، وسوف أضحي من أجل شرفها كما فعلت هي...

_أعلمُ يا أحمد ذلك، فنعم ابن الخال والأخ أنت، أعلم أنك رجلاً ورغم حبك وألمك إلا أن حبك لها جعلك ترضى بالألم والفراق على أن تُلاك سيرتها بكلمة، فهي الشريفة العفيفة طاهرة الثوب والروح والقلب.

سارعت سناء لتكون بجوار رفيقتها، وأحمد في حيرة من أمره فلا قدرة له أن يراها تتأبّط ذراع غيره، ولا يستطيع تركها وحدها، لابد أن يقاسمها مرارة تلك اللحظات، وقد اشتاقت روحه إليها فلينهل من رؤيتها بعضاً من حياة، لتكون له زاداً في سفره الطويل بعيداً عنها.

وما هي إلا سويعات وتعالى صوت الزغاريد والأعيرة النارية، فقد اقترب الفرح! فهذا هو اليوم الذي يسبق يوم الزفاف.

الفصل السابع

"ليست الطرائد في الغابات فقط، فمن البشر من يحمل تلك الصفة وأغلبهن من النساء، فإذا وقعت الطريدة في فخ الصياد فلا أمل في النجاة، إلا إذا اختارها الموت لتكون طريدته"

عصفور فوق صفيح ساخن...

مازالت مظاهر الفرح قائمة...

الأعيرة النارية تملأ السماء صخباً وشهباً كأنها نيازك تشتعل في السماء، ثم تتساقط شظاياها على الأرض فيبتلعها العدم وتعاد الكرة.

الأحصنة تضرب الأرض بحوافرها يمتطيها الفارس، والرجال يرقصون بالعصا (التحطيب) على أنغام المزمار البلدي، وعلى ظهرها الفارس والمنشد على الربابة يحكي قصص الزير سالم والزناتي خليفة.

فرح يقام على الأرض، ومآتم في قلوب قد خلعت، وحناجر قد اجتثت!

ليلة الحنة تتجهّز العروس لليلة العمر لكل فتاة تقيمها صديقات العروس وأهلها من النساء، فرحاً بعرسها، قامت البنات بإعداد الحنة، ووضعها في إناء تُضاء فيه الشموع ويرقصن به، ثم يقمن بصبغ أيديهن ووشمها.

مريم بينهن تحاول أن تبدو سعيدة؛ فتبادلهن الابتسام بابتسامة مصطنعة، ثم ما يلبث الحزن أن يمر على وجهها كمزنة غطت وجه الشمس.

من فرجة الباب تدلف فتاة تكسو وجهها ابتسامة.

ففي هذه الطقوس يمنع دخول أحد من الرجال فليلة الحنة مجلس خاص بالنساء والفتيات فقط.

تسمرت عينا مريم على وجه الفتاة تحاول أن تعرف من هي فهذا الوجه ليس غريباً عليها، ثم تتمتم: هذه زينب.

فهذه هي الفتاة التي رأت صورتها مُلقاة في أرضية المجلس منذ عدة أيام، تعجّبت من هذا التغير الذي اعتراها؛ بدت بشكل مختلف رقّقت شعر حاجبيها، ورسمتهما بالكحل الأسود الذي رسمت به عيناها، وظهرت حمرة في خدودها وكأنها عروس قد تزينت، ولكنها بدت كعروس من البلاستيك؛ فقد أفقدها ما فعلته بوجهها براءتها.

تذكّرت مريم صورتها، فأكل الفضول عقلها ونسيت كل المحيطين بها.

عادت تسرح في زينب؛ تلك الفتاة ذات الأربعة عشر عاماً، والتي تدرس في الشهادة الإعدادية، وبين تلك التي تقف أمامها وقد أظهرت كل ما تملك من أنوثة بهذا الفستان الذي ترتديه، فيظهر استدارة صدرها وجمال قوامها الذي يميل قليلاً إلى السمنة.

فطنت مريم إلى نظرات النساء إليها وهي سارحة بعد أن لكزتها سناء قائلة:

في أي شيء شردت يا مريم، فنظرت إليها ثم كسرت نظرتها لتقع على زينب.

فابتسمت سناء لأنها فهمت ما ترمي إليه مريم من تلك النظرة، وبابتسامة لئيمة مع حركة للشفاه، قالت لمريم هامسة في أذنيها:

إنها سوف تتزوج من أحد الأثرياء، لا تنظري إلى وجهها بل انظري إلى صدرها وهذا العقد الذي يتدلّى منه كأنّه عنقود من العنب، سامحك الله يا زينب لقد شعرت بالجوع، وانظري إلى تلك الأساور التي تزين معصمها، اللهم لا حسد ولا قر يااااارب...

كتمت مريم ضحكة كادت تخرج، وهمست هي الأخرى لسناء:

هكذا أنت دائماً يا سناء، كل شيء تحولينه إلى مزحة، وكل شيء يتحول في عقلك إلى طعام أيتها السمينة.

تنهّدت سناء وأردفت قائلة:

ستتزوج زينب التي كانت تلعب مع فراشات الحقل بالأمس، وتجمع التوت من فوق الشجرة و سأظلّ أنا هكذا عانس مُعتّقة كبلاص المش.

تضاحكت الفتاتان، ولكن مازال السؤال دائراً في رأس مريم:

ما الذي أتى بصورة زينب مع حامد وسالم، وهل لهما علاقة بهذا الزوج الذي قالت عنه سناء؟ ستنكشف الأمور قريباً فلا شيء يبقى للأبد في طي الكتمان.

صباح يوم الفرح، بدأت تجهيزات الفرح، فقامت إحدى السيدات (الماشطة) بتزيينها ومعها سناء أخت قلبها، وتوأم روحها، لم تفارقها، تحاول أن تطمئن أنها ستخرج في أبهى صورة، ومن وقت لآخر تربت على كتفها، فتدير مريم رأسها لتنظر إليها، فلا يعلم مكنون صدرها سواها؛ فتبادرها سناء بابتسامة، ثم تمدّ يدها لتمسك أنامل مريم الباردة تطبق عليها بكفيها وتواسيها بعيون تلمع فيها دمعة تحبسها وشفاه تعلوها ابتسامة لتقويها وحولها البنات العذراوات يرقصن

بجلابيب فضفاضة وملونة، يتجمّعن في حلقة كبيرة تتوسّطها فتاة أو أكثر، يرقصن على تصفيق الأيدي وإيقاع الطبلة، أو ما يحلّ محلها من أواني المنزل، ليحتفلن بليلة الحنة فيرددن:

ودي بيضة و تلبس طقم أبيض

و تتمايل على كل الصفوف

و لا عندي الاعز من مقامك

و لا عندي جواهر يعجبوك

و لا هاين عليه اني افوتك

و لا قادر اراضي خاطر ابوكي

يا صغيرة و لا عندناش محلاك

ان حبك يعمل على مرضاك

ان حبك يجيبلك جهازك تمام

ويوقد الشمع المنير في جلالك

دخل عريس في قصرها بيدور

يلقى العروسة على النجف بتنور

مدي إيدك يا عروسة.. مدي إيدك للحنة

مدي إيدك يا عروسة.. مدي إيدك وتحنّي

طبل وغناء وضحكات من الفتيات، وهنّ يتمايلن على العروس يميناً ويجلسن مكانها، ومنهن من تجري لتقوم بقرص ركبتها، لتلحق بها في الزواج؛ فالبنت منذ ولادتها تحلم بهذا اليوم والفستان الأبيض، ولكن لا يُدركن أنّ هناك فستاناً هو رداء يوصلهن للجنة، كما يحلمن ومنه كفن، توضع فيه البنت ويكون نهاية حياة لروحها إذا لم تجد من يعرف قدرها.

ويعلم جيداً معنى الميثاق الغليظ الذي يربطه بمن استحلّ جسدها وملك أمرها.

تعلو الزغاريد وتنزل العروس إلى باحة المنزل الذي قد أعد للاحتفال بها قبل أن تغادر بيت أبيها؛ لتجد الكوشة التي أُعدت لها، تلمع عينيها انبهاراً بها، فقد أعدت على أريكتها التي كانت مكانها المفضل في جانب الحديقة، وقد تناغمت فروع اللبلاب الأخضر مع ما زينت به من ورود من كل الأنواع جوري، ياسمين، فل، نرجس وخزامى بشكل متناسق وكأنها صممت بيد فنان، تتراص الورود حولها من كل لونين مختلفين، بينهما جورية بيضاء وأغصان اللبلاب الخضراء ملتفّة تحتها، وفروع من نور بألوان قوس قزح تتراقص ألوانها وفي أسفل الكوشة كرسيان مذهبان قد وضع عليهما مفارش مخملية حمراء. بدت الكوشة مبهجة، وكأنها قد هبطت من الجنة.

تلتفت مريم لتجد أخيها حسن من بعيد يشير إليها، علمت أنه هو من أهداها هذه الكوشة وكساها بأنواع الورود التي تحبها علّها تدخل على قلبها بعض البهجة، وتذكرت عرش الورد الذي ذكره الرافعي في كتابه (وحي القلم) كان قد أعدّ مثله لابنته وهو يصف الكوشة التي أعدت لزواج ابنته وكيف كانت منبهرة بها، وبوصف الرافعي الماتع وأنه ذكرت لحسن أنها ستشيد مثلها يوم عرسها، جلست مريم على الكرسي، بوجهها الأبيض الجميل فكانت مع هذه الأنوار المتلألئة حولها وكأنها قمر في السماء تغازله النجوم، بدت كأجمل لوحة فنية قد رسمها فنان، وكيف لا فهي الطبيعة في أبهى صورها من وجهٍ صبوح وورود تحفُّها، وكأنّ كل زهرة تُقبل أختها، وتتنفس عبق الحب

حول هذه الحورية التي لم يشغلها هذا عن حزنها الذي لا تستطيع أن تظهره فلابد أن تخفيه حتى عن ملامحها فهي عروس ولا يحق لها إلا الفرح. فرسمت ابتسامتها وسناء بجوارها تصفق بيديها وتزغرد مع النساء والبنات، وهي تعلم أنّ صديقتها تنزف دماً هذا ما شعرت به مريم وهي تتحسّس الخميلة الحمراء الدافئة، وكأنّها نهر من دماء تسبح فيه، ولكن كما يقولون: (مجبر أخاك لا بطل).

اقترب موكب العريس، فهلّل الرجال، وصدحت الأعيرة النارية وعلت زغاريد النساء وتصفيقهن؛ فانقبض صدر مريم، تعالت دقاته كأنه طير ذبيح قد نحر فوراً بسكين مشحوذة، رأت سناء اضطرابها وهي تعصر كلتي يديها ببعضهما،

فانحنت لتضم رأسها لصدرها ثم جلست بجوارها تمسك يديها المرتجفتين الباردتين وتربت عليهما، وتنظر إليها لتطمئنها، فتسحب مريم شهيقاً عالياً محاولة أن تتماسك، وتتلفّت حولها لتجد أن كل العيون قد صوبت إلى مدخل البيت في انتظار العريس.

يدخل حامد يحتضنه سالم مهنئاً ويسلم على أمها منتصب الطول، يرتدي جلباباً بلون الفل، ويضع حول عنقه وشاحاً يرتديه رجال الصعيد بنفس لون العباءة، تعلو وجهه ابتسامة سعادة وكأنّه يحتضن ذرات الهواء من فرط سعادته، فاليوم قد كلّل صبره وحرمانه، بهذه الجوهرة التي ستزين صدر أيامه القادمة.

يتقدّم بخطوات سريعة، قدماه لا يكادان يلامسان الأرض، يسمع دقات قلبه فيضع يده على صدره يربت عليه ليهدأ، وكأنّه يقول له بعد دقائق ستضم إليك أجمل جورية، فاهدأ واطمئن يتقدم حتى يصل إلى حيث تجلس، ما أن تقع عيناه عليها حتى يتوقف هنيهة ليتنفس، متسائلاً بينه وبين نفسه، أي جمال قد وضع فيك يا مريم، وأي حظ قد جعلك من نصيبي.

وجهها مغطى بغلالة شفافة من الطرحة التي فوق رأسها، ولكن آنى لهذه الشمس البهية أن تسترها غلالة شفافة، يضع يدها في ذراعه لتتأبّطه تتلفّت حولها تريد أن تفر

هاربة، أن تتخطفها الطير ولكنها تسلم نفسها، وتمضي فترى دموع أمها وأختيها، ودموع سناء

لكن شتّان بين دموع الفرح في عيني أمها وأختيها، ودموع الحزن التي تقطر من عيني سناء! ومريم تغالب عباراتها تشيّعها الأغاني والزغاريد لتمضي إلى مصيرها المحتوم.

ومن خلف الشباك في بيت عمته يراقب أحمد بيت مريم، ليظهر طرف ثوبها الأبيض فيسقط قلبه في قدميه، ثم تتبدّى له وهي تتأبّط ذراع حامد فيدير وجهها، يريد أن يطلق صرخة أو يجري إليها ليخلصها من يده، ثم يعيد النظر ليرى حياته التي لم تكن تمشي بل يجرها جراً، وكأنه يقتادها إلى المقصلة؛ فيتبعها أحمد بقلبه وروحه.

تتساقط دموعه بغزارة، حين رأى وردته الجميلة ذابلة، كجثة تُحمل إلى المقبرة.

تمضي منكسة الرأس شاردة تغور بها الأرض،

تسمع الزغاريد التي تطلقها النساء وكأنّها صرخات، الوجوه المبتسمة كأنها لدمى لا تشعر!

هذا الحريق الناشب في صدرها تستنجد به، ولكن لا حياة لمن تنادي، غارقة هي في بحر من أحزانها، عيونها تصافح أعينهم، ولكنهم لا يرونها وكأنّ بينها وبينهم سداً، تغشاهم فرحتهم المزيفة، وابتسامتهم الباردة، فهم لا يبصرونها سعداء هم بانتصارهم على قلبها.

تسير أمها خلفها، تسمع مريم أنفاسها، دقات قلبها، تمتمة شفتيها بالدعاء: أسعدك الله يا مريم، ودمعة حيرى تحاول أن تنزل، فتقابلها مريم بابتسامه، تحتضن كفّ أمها المجعد، وتلتفت لتحتضنها، تقبل جبينها.

دار بها حامد في البلدة ليزفّها، كانت قدماه لا تلمسان الأرض من فرط سعادته حتى وصل لمكان البيت...

الرجال يصطفون علي الجانبين، يتبادلون التهاني والتبريكات.

أمام بيت حامد بأنواره المتلألئة، طلقات نارية تخترق حاجز السماء.

تتوقف لحظة، تنظر إلى الرصاصة المنطلقة في الهواء تتبعها ببصرها، تتمنى أن تستقر في قلبها ليكون مصيرها القبر، ولكن لابد أن تأخذ نصيبها من الموت، ونصيبها ألا تموت دفعة واحدة، بل يجب أن تموت آلاف المرات.

ينظر إليها حامد ويطبق يديها علي ذراعه كلما ضاقت يديها منه، وانسلّت هاربة.

لاحت شجرة التوت من بعيد، وكأنها هي الأخرى تودعها.

التفتت إليها وكأنها تؤمّنها على روحها وقلبها؛ فقد تركتهم مريم وسارت مع حامد جسداً بلا روح...

أخذها حامد ودخل إلى بيته.

مازال الرجال يرقصون بالأحصنة وصوت البنادق وزغاريد النساء، وأصوات المباركات والقهقهات العالية من الرجال الذين يحسدون حامد أن فاز بهذه الوردة اليانعة.

لم يطق أحمد فكأنّ ناراً شبّت بداخله، اجتاحت كل كيانه، فكان كل ما فيه يتلظّى، في صمت

هرع إلى شجرة التوت، يبكي... صورة مريم بفستان الزفاف لا تفارقه، عيناها تواجهانه، يرى دموعها من خلف هذه الابتسامة الباهتة التي كانت ترسمها وهي تسير في موكب الفرح

ابتسامه بلهاء تهذي....

ابتسامة من رضيت بالموت لا لشيء إلا لأنها أنثى فى مجتمع لا يؤمن إلا بوأدها حتى وإن تظاهر بالعكس.

رآها وهو يحيطها بذراعه في موكب عرسها ما كان له أن يسير بجوارها، ولكن لابد أن يأخذها في حضن قلبه، يتمنّى أن يحملها، ليطير بها وهي كفراشة قد التصقت بزهرتها، لا تطيق فراقها.

رأى عينيها الجميلتين، وبريق السعادة يتلألأ فيهما، وكأنّ العالم قد خلا من الناس، فلا وجود لسواهما، وكل ما في الكون يشهد على التقاء روحين قد اكتملا، الكون سعيد كل ما فيه يغني

يصحو من غفوته، يلمحها وهي تطأ بقدميها بيت حامد ويغلق الباب، يصرخ صرخة مزّقت صدره فما كان له أن يطلقها، فابتلعها لتمزق نياط قلبه، جعلته يتداعى جاثياً على ركبتيه واضعاً جبهته على التراب تحت الشجرة، يرويها دموعاً، تسيل كأنها حممٌ منهمرة...

وبينما هو في شروده، يجلس تحتها، يستند برأسه على جذعها.

أتته سناء، بعد أن تبخّر من أمام عينيها وقت الفرح، وعلمت أنه لا محالة هناك عند شجرة التوت، جلست أمامه القرفصاء، وربتت على كتفه، فتح عينيه ليراها، فازداد نحيبه الذي آزر نحيبها أمسكت بمعصمه بعد أن هبت واقفة وهي تقول:

_هيّا إلى البيت فلا طائل من جلستك هذه فقد حلّ الظلام ولا أستطيع تركك هنا.

_اتركيني يا سناء فلا طاقة لي بالعودة ورؤية منزل تسكنه مريم مع غيري، أي نار تشتعل بقلبي، ثم يسرح بنظره إلى هناك حيث تبدو الأنوار المعلقة على بيت حامد وكأنها شعلات من نار تغمس في قلب روحه فيهذي ألماً ويقول:

لهف قلبي عليك يا حبة القلب، أتصور ما تعانيه الآن، ما يحدث لك يقتلني قبل أن يقتلك، يمزق روحي وقلبي، ولكن ماذا أفعل رباااااه! ألهمني القوة وألهمها الصبر.

_هيا يا أحمد لها الله، فكم عانت وكم ستعاني ولكنها إرادة الله.

_بل إرادة البشر، فالله لايرضى بالظلم، لايرضى أن تغصب بنت على الزواج، هذا ليس زواجاً فلابد من رضاها، وأعلم أنها لم تكن تقبل بغيري زوجاً.

_أنا معك ولكنها أحكام العائلة وليس لنا إلا الإذعان، كانت تعلم ذلك وكنت أعلم ولكن نشوة الحب جعلتها تتناسى، فليسعدها الله، وليربط على قلبها.

_لا أعلم ماذا سأفعل يا سناء، لقد أظلمت الدنيا في عيني سبحان الله كم أشعر بالمرارة، فعلاً إذا أردت قتل إنسان من الداخل فاجعله يتعلق بك ثم اتركه، هكذا أشعر فأنا ميت يا سناء وهذا الصوت ماهو إلا صدى يتردد في خوائي.

_كفاك تعذيباً لنفسك فما جرى ما كان لأحد دفعه ولا نستطيع الآن تغييره، فلنحاول تجاوزه، فالحياة تسير إما ونحن بداخلها أو فوق أعناقنا، ولكنها في الآخر لابد أن تمضي.

رافق أحمد سناء ومضيا إلى منزلها، وعندما تراءى له بيت حامد، أشاح بوجهه فقد شعر بقوة داخلية تحثه على أن يقتحمه، ويخلص حبيبته من براثن هذا الزوج ولكنه تراجع من أجل مريم وشرف عائلتها.

دخل إلى البيت، وهرع إلى الغرفة المهيأة للضيوف وأغلق بابها.

ثم ما لبث أن أمسك قلم وورقة ليكتب لمريم:

مريمتي يالهف روحي على فراقك ياكل روحي، مشتت الفكر مكلوم الروح، لا أشعر إلا بلظى قلبي تتأجج ناره، كمرجل يغلي لا تضعف ناره، وكيف لا يا مهجة القلب، فمن أنا بدونك، كنت فارغاً حتى امتلأت بك، فعدت خاوياً وليتني كما كنت سابقاً، ولكن داخل هذا الخواء دم يغلي، وروح ثكلى وألم يعتصر أضلعي شوقاً وغيرة، أموت في كل لحظة أعلم أنك لم تعودي لي ولن تكوني أبداً، اختطفوك يا يمامتي الرقيقة من عش قلبي، قصوا أجنحتك وسلموك إلى من لا يرى فيك إلا جسدا لا يعلم أنّ داخل هذا الجسد في يوم ما كانت تسكن يمامة تعشق الحرية وتتغنّى بالحب، وقد اصطادتها رصاصة الغدر فباتت تتألم لا هي تحيا ولا هي تموت،

رفقاً بنفسك يا كل نفسي فروحي قد غادرتني وسكنتك لاحاجة لي بها، ستجدينني بجوارك دائماً حتى وإن كنا بعيدين، فقد امتزجت أرواحنا وأبداً لن تنفصل.

كل الحب أبثه لك وأتمنى لك يا مهجتي سعادة الدنيا والآخرة، باق أنا على حبك حتى يواريني الثرى، وسأظل مخلصاً لشجرة التوت التي كانت مرتع حبنا.

حبيبتي لست وحدك من تكابدين، فلا تعلمين أي نار يكتوي بها الرجل إذا لمس أحدٌ حبيبته لك أن تتخيلي ما يحدث بداخلي، أتمزق كل ممزق كلما تذكّرت أنّ يدا غير يدي ستلمس أناملك الرقيقة ثم تنسلّ كأفعى سامة لا لتنهشك بل لتنهش قلبي وتمزق روحي، لأي شيء أعيش، وكيف تُسمى هذه حياة.

مازلت أجاهد نفسي وأتصبر، أضع على قلبي حجر أحبس روحي الصارخة التي تتخبط بداخلي كالمجنون، تكسر أضلعي كمداً وتحرق أنفاسي بصرخاتها المحمومة، أي جحيم هذا، وأي عذاب قد يضاهي عذابي، ياالله لا يعلم بي غيرك. فاربط على قلبي. يااارب تعلم أني قد ذقت حبها وأنت من وضعت حلاوته في قلبي.

فكن معنا...

يضع حامد مريم في حجرة، يخرج ويغلقها خلفه.

يا لشقاء الفتاة أن تُلقى في أحضان رجل لا تعرفه ولم تتعرف روحها على روحه، أن يخالط جسدها جسداً لا تنتمي إليه، كعضو قد غُرس في جسد دون أن يكونا متطابقين، ألا يعلمون معنى أن تُزهق روحك وأنت على قيد الحياة! أن تصرخ داخلك...

أن تنزل دموعك رعباً، أي عذاب!! أن نهمل الأصل في وجودنا- الروح- ونعيش عبيداً للجسد.

ما إن دلفت إلى الحجرة وطافت بعينيها لترى الشراشف البيضاء التي تزين السرير وهذا الحرير الذي يلمع للرائي وكأنها أحمالاً من الشوك قد بسطت لتتقلّب عليه...

في لحظة خروج حامد ليتقبّل التهاني من المدعوين من أقاربهم الذين جاءوا من بلاد بعيدة، قررت مريم أن تحادثه فربما يفهمها أو يشفق لحالها ولكن كيف؟ قد يقتلها حامد، وتكون المصيبة أكثر فماذا سيُقال على عروس قد قتلت في يوم عرسها؟. في غمرة أفكارها وهي ما زالت على الكرسي أمام المرآة تنظر إلى حياة أخرى كانت تنتظرها وهي تزف إلى أحمد

كحمامة بيضاء تطير فرحاً وتغمرهما السعادة

وسناء خلفهما ترشقهما بالورود، وما إن دلفا إلى بيتهما حتى يباغتها أحمد ويحملها ليطوف بها أرجاء البيت وكأنّه يُحلّق بها. يوقظها من حلمها الجميل صوت باب حجرتها وهو يفتح تلتفت فتجد حامد أمامها، ترتعد مكانها وكأنها سقطت من السماء إلى جب مظلم في قاع الأرض.

ما إن أغلق الباب حتى كادت روحها تخرج من بين ضلوعها، وكأنّه قبر قد ألقيت فيه وأهيل عليها التراب، فابتلعها وضمها حتى اختلفت أضلاعها.

مطرقة إلى الأرض، تتوسلها أن تبتلعها، أن تغور من تحت قدميها حتى تصل إلى سابع أرض، فقدت إرادتها، حتى أنها ظنت أنها فقدت النطق. تحرك لسانها داخل فمها، تحاول أن تنطق ولكن قد جفّ لعابها فرقاً، كل ما يشعرها بالحياة تلك الارتجافة التي تهز كل خلجة من خلجاتها حتى أن تسمع اصطكاك أسنانها، وهذه الدموع التي حاولت أن تدفعها فأبت إلا أن تفور وتندفع على خديها كحمم اندلعت من فوهة بركان تعود فتقلب بصرها في سقف الحجرة تنظر إلى السماء، تتمنى أن تنزل بها صاعقة تحرقها، أو طائراً عملاقاً يخطفها فتظلّ في حوصلته إلى يوم يبعثون، ولكن لا الأرض استجابت ولا السماء، وها هو حامد يقترب، وقع خطواته، لا يدب على الأرض بل على قلبها الأخضر فيحيله هشيما، تذروه رياح الخوف، ترتعد فرائصها، تبتلع دموعها في حلقها فتحرقه، وكلما اقترب احترقت، حتى مدّ يديه أمسك يديها وهي مازالت تنظر إلى موضع قدميه، جذبها فقامت من جلستها على الكرسي حتى استقامت أمامه بطوله الفارع، يتأملها... يرفع وجهها ليسطع على محياه القمر.

بدت له ست الحسن، أميرة من الأميرات، تتراقص السعادة في قلبه وتلمع في عينيه، لا تسعه الدنيا من الفرح وكيف لا وقد صارت مريم زوجته.

مال عليها وهمس إليها قائلاً:

ـــ أهلاً بك في بيتك يا مريم، لا أكاد أصدق أنك صرت لي زوجة، أيّ نعيم هذا الذي سأرفل فيه. أطرقت إلى الأرض تتعجب كيف تلتقي السعادة والبؤس؟! الموت والحياة، الربيع والصيف في آن واحد، لم تكن تدرك هذه المأساة إلا عندما عاشتها، أن تتحول اللمسة الى حريق يلهب روحها، والحضن الي قبر تختلج به ضلوعها، والنفس كأنه عاصفة نارية تحرقها، والقبلة إزهاق للروح.

يتفحصها بعينين ذاهلتين، يحتضنها كأنما يحتضن الحياة وهي تدفع أخر نفس لها ليخرج علّ الموت يحنو عليها لينقذها.

تتململ بين ذراعيه القويين، يقبل وجنتيها فتنتفض كحمامة مذبوحة، يعصرها بين يديها

يزيل عنها الطرحة التي فوق رأسها، ترتجف روحها وطبول حرب تقرع داخل صدرها، ولكن أي حرب! فقد اغتصبت الأرض ورفعت راية التسليم، شتان ما بين القول والفعل، لم تقو أن تنبث ببنت شفة، أرست ذراعيها جانباً وأغمضت عينيها، واستسلمت لمصيرها المحتوم.

ها هو يتلذذ بانتصاره، يدك قلاعها، ويمزق كل راياتها ويجردها من كل شيء يمنعها عنه.

وهي تتصبّب عرقاً، وتتمزق رهبة وألماً، ولكن لا نجاة فقد وقعت الظبية في فم الأسد ليعمل أسنانه فيها كيفما يشاء.

تنسابُ عينيه لتلتهمها هذا الوجه الجميل، وهذا الجيد الأملد الذي يفوح عبقاً، وشعرها الذي يبدو كليلٍ أرخى سدوله، وجسدها البض الغض...

كانت كأرض بكر لم يطأها يوماً إنسان...

اغتصاب شرعي هذا ما كان بين مريم وحامد همّ بها فسلّمته نفسها كما تسلم الدجاجة نفسها للأكل، التهمها في نهم كنار قد دبت في هشيم فأتت عليه، يقلبها ذات اليمين وذات اليسار جسد يضج بالحياة وروح تتشظى صارخة، لو كانت الروح تنطق لنطقت ولو كان لها يد لقتلته في تلك اللحظة، ولكن ليس للروح أن تفعل والجسد مُقيّد بعقد، قد وهبت فيه لحامد فلينعم بذبيحته وليلهو بها كيفما شاء، فهذا ما أراده، جسداً بلا روح، وقد حظى به بعد أن أنهى وليمته.

لملمت جسدها المنهك، ثم حاولت أن تنزل عن فراشها فأبت قدماها أن تتحرك، تحاول أن تجر قدميها وكأنهما قدتا من صخر...

أغمضت عيناها وحاولت أن تتنفس ببطء فيبدو أنّ الصدمة قد أصابتها بنوع من الشلل المؤقت، انتظرت ثلاث ساعات حتى بدأت الحياة تدب في قدميها، أما حامد فكان ينام كطفل في ليلة عيد يحتضن كفيه تحت رأسه كأنه يحتضن ملابس العيد، وعلى وجهه ابتسامة رضا، فقد تُوجت سنواته الثماني والثلاثين بهذه الفرحة، ينام بين أحضان غضة، وجسد عذري لم يمسه إنس ولا جان، جسد كعطر نديٍّ على زهرة قد تفتّحت فارتشف عبيرها، ليكسب روحه بهجة ويضفي على جسده الخشن الذي لم يلامس إمرأة قط شباباً ونضارة، فقد ظنّ أنّ حياته ستنتهي دون أن يحدث، وهاهو ذا بين يديه حورية ولكن على شكل إنسانة، يغط في نوم لذيذ بلا أحلام فقد عاش واقعاً أجمل من كل أحلامه، قامت مريم بصعوبة لتزيل عنها درن هذه الخطيئة التي دنّست طهر جسدها،

وألقت بنفسها في حوض الاستحمام لتغسل عنه ما علق به من رائحته وآثار شفتيه التي لم تترك جزءاً منه إلا التهمته، وعندما تعبت يديها من دعك جسمها جلست ليُهمى الماء على رأسها وكتفيها ثم باقي جسدها، وهي تضم ركبتيها إلى صدرها وتضع وجهها عليه. دقائق مرت وربما ساعات لا تدري حتى انتابتها قشعريرة، زلزلتها فقامت لتغلق الماء وتلف جسدها بفوطة كبيرة، ثم ترتدي ملابسها وتنام متكوّرة على حافة الفراش متدثّرة بغطاء سميك تحتال على النوم الذي جافاها ويأبى أن يزور جفنيها اللذين تورما من كثرة البكاء.

أذّن المؤذن لصلاة الفجر، فتذكرت مدرستها وسناء، والطريق المؤدي إلى شجرة التوت، توقفت عبرة في حلقها وكادت تجهش بالبكاء ولكن صوت حشرجة صدرت من حامد وهو نائم بجوارها أعادتها إلى الواقع، فقامت لتتوضأ وتصلي الفجر.

وقفت على سجادة الصلاة تُصلي وتدعو ربها أن يقويها على ما هي فيه، وأن يربط على قلبها لفراق من تحب وأن يجعل حامد زوجاً حنوناً على غير ما تتوقع.

تململ حامد في فراشه، يتحسّسه فوجده فارغاً فقام فزعاً ظانّاً أن ما كان فيه مجرد حلم، ولكنه نظر إلى ركن الغرفة فوجد مريم ساجدة، فتنفس الصعداء وأغمض عينيه مع ابتسامة رضا وعاد إلى نومه.

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع